شعراء العصر الإسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

شعراء العصر الإسلامي

د. محمد غياث المكتبي عبد الرزاق كيلو

دار المكتبي

الطبعة الأولى

2017 - 1438

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الإلكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي.

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - الشارقة - القاهرة
دمشق هاتف: 00963112248433 فاكس: 00963112248432 ص.ب: 31426
الشارقة هاتف: 0097165512262 فاكس: 0097165512264 ص.ب: 3309
Email:almaktabi@gmail.com
www.almaktabi.com

لبيدُ بنُ رَبيعةَ
شاعرُ العربِ
(560 ـ 661م)

الحَمدُ للهِ رَبِّ العالمينَ، والصَّلاةُ والسَّلامُ عَلى سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ سَيِّدِ الأَنْبياءِ والمُرسلينَ، وبَعد:

أَعِزَّائي:

سَنَقرأُ في هَذِهِ الصَّفحاتِ اليَسيرَةِ قِصَّة شاعرٍ عربيٍّ مُجيدٍ مِنْ شُعراءِ الجاهليَّةِ والإِسلام، ومِنْ أَصحابِ المُعلَّقاتِ السَّبعِ، كانَ رابعَ الشعراءِ المُخضرمينَ في الجاهليَّةِ الَّذِيْنَ عُلِّقَتْ مُعلَّقاتهُمْ على جدرانِ الكعبَةِ.

وهوَ مِنْ أَعظمِ الشُّعراءِ المُعمِّرينَ في تاريخِ العربِ الَّذِيْنَ عاشوا دهراً طويلاً، فَعاشَ قرناً ونصفَ القرنِ مِنَ الزَّمنِ عَلى ما قيلَ.

وهذا الشَّاعرُ وصِفَ مِنْ قِبَلِ كِبارِ شُعراءِ العربِ بِأَنَّهُ أَشعرُ العربِ منذُ صِغرِهِ، فَهوَ شاعرُ العربِ بِلا مُنافسٍ، ومِنْ ذَوي الخبرَةِ في اللُّغةِ ونَظمِ القريضِ، استَشهدَ أَربابُ اللُّغةِ كثيراً بِأشعارِهِ، وألفاظِهِ وتراكيبِهِ اللُّغويَّةِ والبيانيَّةِ والبلاغيَّةِ، فَقَلَّما نجدُ كتاباً في اللُّغةِ

لا يأتي بِشعرِهِ، فقدْ حدبَ أكثرُ علماءِ اللُّغَةِ والبيانِ عَلى الاستدلالِ في الإعرابِ والتَّصريفِ بِشعرِ وأَبياتِ هذا الشَّاعرِ المُخضرَمِ.

ولَقدْ كانَ لِهذا الشَّاعرِ مواقفُهُ المُشَرِّفَةُ في الجاهليَّةِ والإسلامِ، فَقَدْ أدركَ الإسلامَ، والتَقَى بِالنَّبيِّ ﷺ، واعتَنقَ الإسلامَ، وشَغلَهُ القُرآنُ بَعدَ إسلامِهِ عَنْ قولِ الشِّعرِ والقَريضِ. ويَقولونَ: إنَّهُ لَمْ يَنظُمْ مِنَ الشِّعرِ بعدَ إسلامِهِ إلَّا بيتاً شعريّاً واحداً فَقَط.

كَما كانَ هذا الشَّاعرُ مِنْ أَشرافِ العربِ، وعُرِفَ بِرزانَتِهِ وبِأَخلاقِهِ الحسَنَةِ، وذَكائِهِ وقُوَّةِ حِفظِهِ، وبِتَرَفُّعِهِ عَنِ الدَّنايا مُذْ كانَ صَغيراً، وهوَ مِنَ الشُّعراءِ الَّذِيْنَ جَوَّدوا الشِّعرَ مُنذُ حداثَةِ سِنِّهِمْ، وكانَ لَهُ باع طَويل في قَولِ القَريضِ، ومُزاولَةِ الشِّعرِ، إلَى جانبِ كونِهِ فارساً مُغواراً تَحلَّى بِالشَّجاعَةِ والإقدامِ، قد عُرفَ بِتَفانيهِ في الدِّفاعِ عَنْ قومِهِ، وبِالذَّودِ عَنْ حياضِ قَبيلَتِهِ بِبسالَةٍ لا تُوصَفُ، ولا يُدرَكُ أمدُها.

وهوَ فوقَ ذَلِكَ، رجلٌ مُؤمنٌ بِاللهِ ﷻ إيماناً عَميقاً لا تُداخلُهُ ريبَةٌ، وكانَ في جاهليَّتِهِ يَعتَقدُ اعتقاداً جازماً بِوحدانيَّةِ اللهِ ﷻ، ولَمْ يَكُنْ عَلَى عقيدةِ الكُفرِ والإشراكِ بِاللهِ، ومِمَّا يَدلُّ عَلى هذا شِعرُهُ الَّذي قالَهُ في تَقديسِ وحدانيَّةِ اللهِ، وتَمجيدِ عظمَتِهِ ﷻ.

كَما كانَ هذا الشَّاعرُ على قَدرٍ عظيمٍ مِنَ الأَخلاقِ العربيَّةِ الأَصيلَةِ، جوَّاداً كَريماً، يُقري الضَّيفَ، ويُطعِمُ المساكينَ والفُقراءَ، ويُعينُ عَلى نوائِبِ الدَّهرِ، ولَهُ مِنَ الصِّفاتِ الحميدَةِ الَّتِي اشتُهرَ بِها بينَ العربِ ما جَعلَ رَسولَ اللهِ ﷺ دائِمَ الذِّكرِ لأَشعارِهِ، كما كانَ ﷺ يَرى فيهِ مثالَ الشَّاعرِ الصَّادقِ في كُلِّ كلمَةٍ يَقولُها.

فَهلْ عَرفتُمْ مَنْ يَكونُ هذا الشَّاعرُ الكَريمُ الأَريبُ؟

إِنَّهُ الشاعرُ، «لبيدُ بنُ ربيعةَ»، شاعرُ العربِ، الَّذي لَمْ يِشأْ بعدَ إِيمانِهِ بِاللهِ ﷻ، وبِالنَّبيِّ الأُميِّ ﷺ أَنْ يَقولَ الشِّعرَ أَو أَنْ يَرتَجِزَهُ بَعدَ تَذَوُّقِهِ البيانَ الإِلهيَّ.

فَما هيَ قِصَّةُ هذا الشَّاعرِ الَّذي أَدركَ الجاهليَّةَ والإِسلامَ، وعَمَّرَ طَويلاً في الحياةِ؟

❋ ❋ ❋

«لبيدُ بنُ ربيعَةَ» هوَ أَحدُ شُعراءِ الجاهليَّةِ المَعدودينَ فيها، والمُخضرمينَ مِمَّنْ أَدركَ الإِسلامَ، وهوَ مِنَ الشُّعراءِ المُجيدينَ، ومِنَ الفُرسانِ المشهورينَ، وهوَ مِنَ المُعمِّرينَ المَذكورينَ في تاريخِ العربِ قَديماً، ويُقالُ: إِنَّهُ عاشَ عَلى وَجهِ الدِّقَّةِ (125) عاماً، وهناكَ قَولٌ: إِنَّهُ عاشَ مئة وخمسينَ سَنَةً، حيثُ بارَكَ اللهُ لَهُ أَثرَهُ، ومَدَّ لَهُ في عُمرِهِ.

وهوَ عَربيٌّ مُضَريٌّ، شاعرُ بَني عامرٍ، وفارِسُهُمْ، وكَريمُهُمُ الَّذي يُفاخرونَ بِهِ بينَ القَبائِلِ الأُخرَى. ويَنتَهي نَسَبُهُ إِلى قيسِ بنِ عَيلانَ بنِ مُضَر.

ولِدَ «لبيدُ» حوالي سَنة (560) ميلاديَّةً، ونَشأَ وتَرعرَعَ في مَضاربِ قَومِهِ في عاليَةِ نَجدٍ مِنْ أَرضِ الجزيرَةِ العربيَّةِ، وكانَ أَبوهُ «ربيعَةُ بنُ مالِكٍ» مِنْ أَسيادِ قَومِهِ ومِنْ أشرافِهِمْ، ومِنْ أَعظَمِ النَّاسِ جوداً وعطاءً وإِسعافاً ونَجدَةً وسَخاءً ومروءَةً، وكانَ يُقالُ لأَبيهِ: «ربيعُ المُقترينَ» لِكرمِهِ وسَخائِهِ.

قُتِلَ «ربيعَةُ بنُ مالِكٍ» عَلى يَدِ بَني أَسدٍ، خلالَ الحربِ الَّتي كانَتْ دائِرةً بينَهُمْ وبينَ قَومِهِ «بَني عامرٍ».

أَمَّا أُمُّ «لبيد»، فَهيَ منْ عليَةِ القَومِ، اسْمُها «تامرَةُ بنتُ جُذامةَ بنِ رواحَةَ»، وأُمُّها «زنباعُ العَبسيَّةُ» إِحدَى شَريفاتِ وكريماتِ بَني عَبسٍ.

وكانَ عَمُّ «لبيد بنِ ربيعَةَ» أَيضاً، مِنْ أَشهرِ فُرسانِ العربِ، ومِنْ أَشجَعِهِمْ، وهوَ أَبو البَراءِ «عامرُ بنُ مالكٍ» الَّذي كانَ يُطلَقُ عليهِ بينَ العربِ: «مُلاعبُ الأَسنَّةِ» لأَنَّ الشَّاعرَ المعروفَ «أَوسَ بن حجرٍ التَّميميَّ» قالَ فيهِ مادحاً شَجاعَتَهُ:

مُلاعبُ أَطرافِ الأَسنَّةِ عامرٌ فَراحَ لَهُ حَظُّ القبيلَةِ أَجمع

ومُنذُ طفولَتِهِ، ظَهرَتْ عَلى «لبيدٍ» علاماتُ النَّجابَةِ والذَّكاءِ، وتَمرَّسَ على الفُروسيَّةِ، وقرضِ الشِّعرِ، كَما اكتَسبَ مِنْ مُحيطِهِ الأَخلاقَ والصِّفاتِ والشِّيَمَ العربيَّةَ الأَصيلَةَ، وتَعوَّدَ ـ كأبيهِ ـ على البذلِ والعَطاءِ والسَّخاءِ، وعلى الجَراءَةِ في قولِ الحقِّ، وعلى مُجاراةِ فُضلاءِ العربِ وحُكمائِهِمْ في الحديثِ والكلامِ والجدالِ المُثمرِ.

وعَنْ ذكائِهِ الحادِّ، وثَقافتِهِ الواسعَةِ منذُ صِغرِهِ، يَروي لنا «أَبو الفَرجِ الأَصفهانيُّ» وغيرُهُ، أَنَّ «لبيداً» نالَ لَقبَ «شاعرِ العربِ» منذُ كانَ صَبيّاً.

فَعَنْ حمَّادِ الرَّاويَةِ قالَ: نَظَرَ «النَّابغَةُ الجَعديُّ» إِلَى «لبيدِ بنِ ربيعَةَ» وهوَ صبيٌّ، حيثُ كانَ معَ أَعمامِهِ على بابِ مَلكِ الحيرَةِ «النُّعمانِ بنِ المُنذرِ»، فَسأَلَ عنهُ، فَنُسِبَ لَهُ، فقالَ لَهُ:

ـ يا غُلام، إِنَّ عَينَيكَ لَعَينَيِّ شاعرٍ. أَفتقرضُ مِنَ الشِّعرِ شَيئاً؟

فَأَجابَهُ «لبيدُ»: نَعَمْ، يا عَمُّ!

فقالَ «النَّابغَةُ»: فَأَنشدني شَيئاً مِمَّا قُلتَهُ.

فَأَنشَدَهُ «لبيدُ» قولَهُ:

أَلَمْ تُلَمِّمْ عَلى الدمْنِ الخَوالي لِيَتَمَلَّى بِالمذانبِ فَالقِفالِ

فَقالَ لَهُ «النَّابغَةُ»: أَنتَ أَشعرُ بني عامرٍ. زدني. فَأَنشدَهُ:

طَلَلٌ لِخولَةَ بِالرَّسينِ قديمٌ فَبعاقِلٍ فَلأَنُعمينِ رُسومُ

فَقالَ لَهُ «النَّابغَةُ»: أَنتَ أَشعرُ هَوازنَ. زدني. فَأَنشدَهُ:

عَفَتِ الدِّيارُ مَحلَّها فَمُقامَها بِمنًى تَأَبَّدَ غَولُها فَرِجامُها

فَقالَ لَهُ «النَّابغَةُ»: اذهَبْ، فَأنتَ أَشعرُ العربِ.

إِذاً، نالَ «لبيدُ بنُ ربيعةَ» الشُّهرَةَ بينَ العربِ منذُ كانَ صبيّاً لَمْ يَبلغِ الحاديَةَ عشرَةَ مِنْ عُمرِهِ بَعدُ.

❋ ❋ ❋

وفدَ «لبيدُ بنُ ربيعةَ» على المُلوكِ في شَبابِهِ، وشهدَ الحواراتِ الَّتِي كانَتْ تَدورُ رحاها في مَجالِسِ المُلوكِ، وكانَ يُجاري كِبارَ سادَةِ العربِ في الكَلامِ، ويَفخَرُ بِنَسبِهِ، وأَمجادِ قَومِهِ، ولا يَهابُ الملوكَ، ولا تَأخذُهُ في قولِ الحقِّ لومَةُ لائِمٍ.

في أَحدِ الأَيَّامِ، كانَ حاضِراً في مَجلسِ المَلكِ «النُّعمانِ» ملكِ الحيرَةِ، في وليمَةٍ أَقامَها المَلكُ على شَرفِ بَعضِ أَسيادِ العربِ وشُيوخِهِمْ، فَنالَ أَحدُهُمْ مِنْ مكانَةِ «بَني عامرٍ» وتَفاخرَ عليهِمْ. فَهبَّ «لبيدُ» وارتَجزَ رادّاً عليهِ:

نَحنُ أَبناءُ أُمِّ البَنينَ الأَربَعه ومِنْ خِيارِ عامرِ بنِ صَعصَعَه
المُطعمونَ الجِفنَةَ المُدعدعه والضَّاربونَ الهامَ تحتَ الخَيضَعه
يا واهبَ الخيرِ الكثيرِ مِنْ سعَه إِليكَ جاوزْنا بِلاداً مُسغَبَه
يُخبِر عنْ هذا خبيرٌ فَاسمَعْه مهلاً ـ أبيتَ اللَّعن ـ لا تَأكُلْ مَعَه

ثُمَّ أَشْعَرَ بِأَبْياتٍ جَعَلَتِ الملكَ «النُّعمانَ» يَأْنَفُ عَنْ تناولِ الطَّعامِ بعدَ سَماعِهِ ذَلكَ، وأَمرَ بِالرَّجلِ فَأُخرِجَ مِنْ مَجلسِهِ، وقالَ عَنْ «لبيدٍ» كلمَتَهُ المَشهورَةَ: «أُفٌّ، لهذا الغُلامِ، فَلقَدْ أَفسدَ علينا طَعامَنا».

❋ ❋ ❋

عَمَّ صيتُ الشَّاعرِ «لبيدِ بنِ ربيعةَ» بينَ القَبائِلِ العربيَّةِ، وبَلغَ شعرُهُ الآفاقَ، وأَخذَ النَّاسُ يُرَدِّدونَ أَشعارَهُ، وبِشكلٍ خاصٍّ أَشعارهُ الَّتِي فيها شَيءٌ مِنَ الحِكمَةِ، وتوحيدِ الخالقِ ﷻ، حَتَّى إِنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ كانَ كَثيرَ التَّردادِ لبيتِ «لبيدٍ» الَّذي يَقولُ فيهِ:

أَلا كُلُّ شَيءٍ ما خلا اللهَ باطلُ وكُلُّ نَعيمٍ لا مَحالَةَ زائِلُ

وقَدْ رُويَ عَنِ النَّبيِّ ﷺ أَنَّهُ قالَ وهوَ عَلى المنبَرِ: «إِنَّ أَشعرَ كَلمةٍ قالَها العربُ: (أَلا كُلُّ شَيءٍ ما خلا اللهَ باطلُ)».

وفي هذِهِ القَصيدةِ ذاتِها يَقولُ «لبيدُ»:

وكُلُّ امرىءٍ يوماً سَيُعلَمُ سَعيُهُ إِذا كشَفَتْ عَنِ الإِلهِ المَحاصِلُ

وعندَما ظَهرَتْ دعوَةُ الإِسلامِ في الجزيرَةِ العربيَّةِ، سَمعَ بِها «لَبيدُ»، ووَصلَتْ إِلى أَسماعِهِ آياتٌ مِنَ التَّنزيلِ الحكيمِ، فَاسْتجابَتْ نَفسُهُ لَها. وقدمَ على رَسولِ اللهِ ﷺ في المدينَةِ المُنوَّرَةِ معَ وفدِ بَني كلابٍ، فَأسلَمَ وهاجرَ إِلَى المَدينَةِ وأَقامَ فيها حَتَّى وفاةِ النَّبيِّ ﷺ، ثُمَّ تَركَها وأَقامَ في الكوفَةِ.

وبعدَ إِسلامِهِ أَحجمَ عَنْ قولِ الشِّعرِ، وقطَعَ على نَفسِهِ عهداً بِذَلِكَ. ويَذكُرُ الرُّواةُ: إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ بعدَ إِسلامِهِ، ولمْ يَرتَجِزْ إِلَّا بيتاً شعريّاً واحداً فَقَطْ، وهوَ:

الحمدُ للهِ إِذْ لَمْ يَأتني أَجلي حَتَّى لَبستُ مِنَ الإِسلامِ سربالاً

أَمَّا عَنْ سَبَبِ إِحجامِهِ عَنْ قَولِ الشِّعرِ، فَتُفَسِّرُهُ لنا القِصَّةُ التَّاليَةُ:

كَتبَ الخليفَةُ «عمرُ بنُ الخطَّابِ» رضي الله عنه إِلَى واليهِ في الكوفَةِ: أَنِ استَنشِدْ مِنْ قِبلِكَ مِنَ الشُّعراءِ ما قالوا في الجاهليَّةِ والإِسلامِ، فَأَرسَلَ إِلى «لبيدِ بنِ ربيعَةَ» فقالَ:

ـ أَنشدني!

فَأجابَهُ «لبيدُ»: أَأُنشدُكَ مِمَّا قَدْ عُفيَ عنهُ مِنْ شعرِ الجاهليَّةِ؟

فقالَ: لا، أَنشدني ما قُلتَ في الإِسلامِ؟

فَانطَلقَ «لبيدُ» إِلى أَديمٍ، فَكتَبَ فيهِ سورَةَ البَقرَةِ، وقال: أَبدلَني اللهُ مكانَ الشِّعرِ هذا.

قالَ: فَكتبَ «المُغيرَةُ» إِلى عمرَ بنِ الخطَّابِ بِذَلِكَ، فَكتَبَ إِليه عُمَرُ: إِنَّهُ لَمْ يَعرِفْ أَحدٌ مِنَ الشُّعراءِ حَقَّ الإِسلامِ إِلَّا «لبيدُ بنُ ربيعةَ».

ثُمَّ أَمرَ الخليفَةُ «عمرُ بنُ الخطَّابِ» عاملَهُ في الكوفَةِ «المُغيرَةَ بنَ شُعبَةَ» أَنْ يُزيدَ في عَطاءِ «لبيدٍ» مِنْ بيتِ مالِ المُسلمينَ إكراماً لَهُ.

ومِمَّا يُروَى في هذا الصَّددِ أَيضاً مِنْ طرائِفِ الحكمةِ، عنْ حياةِ الشَّاعرِ «لبيدِ بنِ ربيعةَ»: إِنَّ أَبا بكرٍ الصِّديق ﷺ كانَ يُلقَّبُ بعدَ توليهِ الخلافَةِ بـ «خَليفَةِ رسولِ اللهِ»، وكانَ يختمُ كُتبَهُ ورسائِلَهُ بِذلِكَ، وعندَما وليَ «عمرُ» الخلافَةَ بَعدَهُ، لَمْ يشَأْ أَنْ يُقلِّدَهُ بِهذا اللَّقبِ، فكانَ يُطلَقُ عَليهِ في بِدايَةِ خِلافَتِهِ لَقب «الخليَفَةِ» فقطْ مُجرَّداً عَنْ أَيِّ اسْم أَو لَقبٍ، وكتبَ «عمرُ» ﷺ إِلى عامِلِهِ في العراقِ أَنْ يَبعثَ إِليهِ رَجلينِ يَسأَلهُما عَنِ العراقِ وأَهلِهِ، فَبعثَ إِليهِ «لبيدَ بنَ ربيعةَ» و«عديَّ بنَ حاتمٍ»، فَقدِما المَدينَةَ ودخلا المسجدَ، فَوجدا «عمرَو بن العاصِ» فَقالا لَهُ:

ـ استَأذِنْ لَنا عَلى أَميرِ المُؤمنينَ.

فقالَ: أَنتُما واللهِ أَصَبتُما اسْمهُ.

ومِنْ يَومِها صارَ يُطلَقُ عَلى الخليفَةِ «عُمرَ» لَقبُ «أمير المُؤمنينَ». ثُمَّ جَرَى عَلى الخُلفاءِ بَعدَهُ.

ولَقَدِ اعتادَ الشَّاعرُ «لبيدُ» على إِطعامِ النَّاسِ عندَما كانَتْ تهبُّ رياحُ الصَّبا في فصلِ الرَّبيعِ، لأَنَّهُ كانَ جَوَّاداً كريماً منذُ زمنِ الجاهليَّةِ، وعندَما انتَقَلَ إِلى الكوفَةِ استمرَّ على هذِهِ العادةِ، وفي أُخرياتِ أَيَّامِ حياتِهِ أصابَتْهُ فاقَةٌ شَديدَةٌ، فَهبَّتْ رياحُ الصَّبا. وكانَ «الوليدُ بنُ عُقبَةُ» والياً على الكوفَةِ، فصعدَ «الوليدُ» المنبرَ وخطبَ النَّاسَ ثُمَّ قالَ لهُمْ: إِنَّ

أَخاكُمْ «لبيدَ بنَ ربيعةَ» قَدْ نذَرَ في الجاهليَّةِ أَلَّا تهبُّ صبا إِلَّا أَطعَمَ. وهذا يومٌ مِنْ أَيَّامِهِ، وقَدْ هبَّتْ صِبا، فَأَعينوهُ. وأَنا أَوَّلُ مَنْ يَفعَلُ ذَلِكَ، ثُمَّ نزلَ عنِ المنبرِ، وأَرسلَ إِليهِ بِمئةِ ناقةٍ.

❋ ❋ ❋

مَدَّ اللهُ ﷻ في عُمرِ «لبيدِ بنِ ربيعَةَ»، فَعاصرَ الخُلفاءَ الرَّاشدينَ كُلَّهُمْ، ولَمَّا اشتَدَّتِ الفِتنَةُ بينَ المُسلمينَ عقبَ مقتَلِ الخليفَةِ عثمانَ بنِ عفانَ ﷺ ثُمَّ مَقتلِ الخَليفَةِ عليِّ بنِ أَبي طالبٍ ﷺ مِنْ بَعدِهِ، قَرَّرَ «لبيدُ» اعتزالَ النَّاسِ، وعدمَ مُخالَطَتِهِمْ، لِما كانَ يَراهُ مِنْ فتنٍ وهرجٍ ومَرجٍ، وقالَ بيتَهُ الشَّهيرَ عَنْ تِلكَ الحالِ:

ذَهبَ الَّذِيْنَ يُعاشُ في أَكنافِهِمْ ... وبَقيتُ في خلفٍ كَجلدِ الأَجربِ

يَأكلونَ مَذَمَّةً وخيانَةً ... ويُعابُ قائِلُهُمْ وإِنْ لَمْ يَشغبِ

فَكانَتْ أُمُّ المُؤمنينَ «عائِشَةُ» ﷺ تُنشِدُ هذا البيتَ، ثُمَّ تقولُ: «رحمَ اللهُ «لبيداً»، فكيفَ لو أَدركَ زَمانَنا هذا؟!». على الرَّغمِ من أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ هُناكَ فترَةٌ زمنيَّةٌ كبيرَةٌ بينَ وفاةِ «لبيدٍ» ووفاةِ «عائشَةَ» ﷺ.

كانَتْ وفاةُ «لبيدٍ» سنةَ (661) ميلاديَّةً، مُتزامنَةً معَ اليَومِ الَّذي استَولَى فيهِ جنودُ «معاويَةَ بنِ أَبي سَفيانَ» عَلَى الكوفَةِ، وهيَ معقلُ أَنصارِ الخليفَةِ «عَليِّ بنِ أَبي طالبٍ» حينَها.

وعندَما تُوفيَ «لبيدُ» نعاهُ أحدُ أَقربائِهِ فقالَ:

لِتَبكي «لَبيداً» كُلُّ قِدْرٍ وجفنَةٍ وتبكِ الصّبا مَنْ فادَ وهوَ حميدُ

ولَقَدْ تركَ لنا الشَّاعرُ «أَبو عقيلٍ» «لبيدُ بنُ ربيعةَ» ديواناً كبيراً يَبلغُ مجموعُ قصائِدِهِ (122) قصيدةً، ومَجموعُ أَبياتِهِ (1322) بيتاً، ومِنْ أَشهرِ قصائِدِهِ مُعلَّقَتُهُ الَّتِي يَقولُ في مطلعِها:

عَفَتِ الدِّيارُ مَحلَّها فَمُقامَها بِمنًى تَأَبَّدَ غَولُها فَرِجامُها

وهناكَ الكثيرُ مِنْ أَشعارِهِ ذَهبَتْ مذهبَ الحكمةِ بينَ النَّاسِ، منها قولُهُ:

وأَنَّكَ ما يُعطيكَهُ اللهُ تَلقَهُ كفاحاً وتجلبُهُ إِليكَ الجوالِبُ

وقولُهُ:

نوائِبُ مِنْ خيرٍ وشرٍّ كليهِما فلا الخيرُ ممدودٌ ولا الشَّرُّ لازبُ

وقولُهُ:

ما عاتَبَ الحُرُّ الكريمُ كَنفسِهِ والمرءُ يُصلحُهُ الجليسُ الصَّالحُ

الأَسْئِلَةُ وَالْمُنَاقَشَةُ

1 ـ بِماذا عُرفَ الشَّاعرُ لبيدُ؟

2 ـ كيفَ كانَ ربيعةُ والدُ لبيدٍ، وماذا كانَ يقالُ لهُ؟

3 ـ على ماذا تعوَّدَ لبيدُ منذُ صغرِهِ؟

4 ـ ماذا قالَ النَّبيُّ ﷺ وهوَ على المنبرِ؟

5 ـ ما هو البيتُ الوحيدُ الَّذي قالَهُ لبيدُ بعدَ إِسلامِهِ؟

6 ـ ماذا قالَ الخليفة عمرُ في حقِّ لبيدٍ؟

7 ـ لِماذا اعتزلَ لبيد النَّاسَ، وماذا قالَ في ذلِكَ؟

الخَنساءُ
سَاعرةَ الرِّثاء
(575 ـ 664م)

الحَمدُ للهِ رَبِّ العالمينَ، والصَّلاةُ والسَّلامُ عَلى سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ سَيِّدِ الأَنْبياءِ والمُرسلينَ، وبَعد:

أَعِزَّائي:

سَنَقرأُ في هَذِهِ الصَّفحاتِ اليَسيرَةِ قِصَّة شاعرةٍ عربيَّةٍ مُجيدةٍ، ملأَ شعرُها الدُّنيا بِأَسرها، وشغلَ حُزنُها ورِثاؤُها النَّاسَ أَجمعَ، حَتَّى صارَتْ مضربَ مثلٍ بينَ العالمينَ في الحُزنِ والبَلواءِ، والشَّكوى والرِّثاءِ، بَلْ صارَتْ مضربَ مثلٍ في الشَّجاعةِ والإِباءِ، وفي بَعثِ الحَميَّةِ والغيرَةِ القَوميَّةِ والوَطنيَّةِ في قلوبِ الرِّجالِ، وإِذا ذُكرَتِ النِّساءُ العربيَّاتُ المُسلماتُ المُناضِلاتُ في تاريخِ العربِ والإِسلامِ كانَتْ هذِهِ الشَّاعرةُ الثَّائِرةُ في مُقَدِّمَتِهِنَّ.

هذِهِ الشَّاعرةُ الكبيرةُ أَشعرُ شاعراتِ العربِ والمسلمينَ عَلى الإِطلاقِ، وأَشعرُ النَّاسِ كما قالَ عَنها سَيِّدُ الثَّقلينِ مُحمَّدُ بنُ عبدِ اللهِ ﷺ.

فهي في الجاهليَّةِ الأُختُ الصَّبورُ، أُختُ قَتلَى بَني سَليمٍ في العربِ، وكانَتْ في

الإسلامِ الأُمَّ الرَّؤُومَ الرَّؤُوفَ، الَّتِي تَدفَعُ بِأَبنائِها جميعاً إِلى لِقاءِ العَدوِّ انْتِصاراً لِدينِهِمْ ولأُمَّتِهِمْ، وذَوداً عَنْ تُرابِ أَرضِهِمُ العَربيَّةِ، ولا تَبتَئِسُ أَنْ تُوصيهِمْ جميعاً مِنْ تَوخي الشَّهادَةِ، ومِنْ عدمِ الجُبنِ في ساحةِ المعركةِ، أَو الاستسلامِ لِلعَدوِّ، وتُذَكِّرُهُمْ بِما أَعدَّهُ اللهُ ﷻ لِلمجاهدينَ في سَبيلِهِ، ولِلشُّهداءِ الأَبرارِ مِنَ الثَّوابِ والعطاءِ.

وهيَ ـ عندما يَأتيها خبرُ استشهادِ أَبنائِها جميعاً ـ تَفرَحُ فَرحاً شَديداً لأَنَّهُمْ دخلوا في مُستَقَرِّ رَحمةِ اللهِ ﷻ، وأَصبحوا عندَهُ أَحياءً يُرزَقونَ، وتَقولُ حينَها كلماتٍ تَشعُّ مِنْ عظمَةِ نَفسِها، ومِنْ قُوَّةِ إِيمانِها وثِقَتِها بِرَبِّها ﷻ، فهي أُمُّ الشُّهداءِ الَّتِي يُضربُ فيها المَثلُ.

فَهَلْ عرفتُمْ مَنْ تكونُ هذِهِ الشَّاعرةُ الشَّكومُ؟

إِنَّها الشَّاعرةُ البَطلَةُ، الصَّحابيَّةُ الجليلَةُ، والمُؤمنَةُ الصَّابرَةُ «الخَنساءُ»، الَّتِي رفَعَ اللهُ ذِكرَها في الدُّنيا بِصبرِها والتماسِها الأَجرَ عندَهُ ﷻ.

فَتَعالوا معاً لِنقرأَ مِنْ حياتِها صَفحاتٍ مُضيئَةً بِالبُطولَةِ والإِيمانِ في هذِهِ العُجالَةِ السَّريعةِ.

❋ ❋ ❋

يَرجعُ نَسبُ «الخنساءِ» إِلى بَني سَليمٍ مِنْ قيسِ بنِ عيلانَ مِنْ مُضَرٍ، واسمُها: «تماضرُ بنتُ عمرو بنِ الحارثِ بنِ الشَّريدِ الرِّياحيَّةُ السُّلميَّةُ».

ولَقَبُها: «أُمُّ عَمرو»، وسُميَّتْ بِـ «الخنساءِ» لأَنَّهُ كانَ بِها خُنسٌ[1]، ولِدَت «الخنساءُ» سَنةَ (575) ميلاديَّةً، ونَشأَتْ وتَرعرَعَتْ في مضارِبِ قَومِها بَني سليمٍ في نجدٍ، في بيتٍ

(1) الخَنسُ: تأَخرُ الأَنفِ عن الوَجه معَ ارتفاعِ الأَرنبَة، والخنساءُ كانت على هذا الوصفِ.

جاهٍ ونُفوذٍ وثَراءٍ، حيثُ كانَ والدُها «عمرو بنُ الشَّريدِ» سَيِّدَ قَومِها بَني سليمٍ، وكانَتْ مُنذُ صِغرِها ذَكيَّةً لبيبَةً، تَميلُ نَحوَ الشِّعرِ وحفظِهِ وقَرضِهِ.

وإذا كانَ المُؤرِّخونَ لَمْ يَذكروا شَيئاً عَنْ طفولَتِها ونَشأَتِها، فَإِنَّها ـ بِلا شَكٍّ ـ قَدْ تَأَثَّرَتْ بِالحياةِ العامَّةِ، والبيئَةِ الَّتِي عاشَتْ فيها، حيثُ كانَ العصرُ الَّذِي عاشَتْ خِلالَهُ مِنْ أَزهَى عصورِ الشِّعرِ العربيِّ والحكمةِ عندَ العربِ، وخاصَّةً في منطقَةِ نجدٍ الَّتِي عاشَتْ فيها قبائِلُ عربيَّةٌ شَتَّى.

شَرعَتْ هذِهِ الفَتاةُ العربيَّةُ في حفظِ كُلِّ ما تَتَلقَّفُهُ أُذُنُها مِنْ أَشعارِ العربِ وحكمَتِهِمْ، وعندما كَبُرَتْ تَزوَّجَتْ مِنْ رَجلٍ مِنْ أَشرافِ قومِها، ومِنْ ساداتِهِمْ يُدعَى «عَبد العُزَّى» ثُمَّ ماتَ عنها في إِحدَى الغَزواتِ، فَتزوَّجَتْ رجلاً بَعدَهُ مِنْ قَومِها أَيضاً يُدعَى «مرداس السَّلميَّ»، فَولَدتْ منهُ عدَّةَ أَولادٍ اشتُهروا جميعاً بِالفُروسيَّةِ، وقَولِ الشِّعرِ، واستُشهدوا جميعاً في غزوَةِ القادسيَّةِ، كما كانَ لَها ولِزوجِها ابناً أَكبرَ أَخواتِهِ جميعاً وهوَ «عبَّاسُ بنُ مرداسَ» الَّذِي كانَ مِنَ المُؤلَّفةِ قُلوبهمْ في الإِسلامِ.

وكانَ لِلخنساءِ أَخوان «صخر» و«مُعاويَة» قُتلا كَأَبيهِما «عبدِ العُزَّى» في حروبِ بَني سَليمٍ معَ غيرِهِمْ مِنَ القبائِلِ العربيَّةِ، وكانا مِنْ أَشهرِ فُرسانِ العربِ، ومِنْ أَجمَلِهِمْ.

إِنَّ موتَ أَخوَيها أَشعلَ في قَلبِها الحُزنَ، وهيَّجَ في مَخيلَتِها الشِّعرَ، فَبَكَتْهُما طَويلاً طَويلاً، ورَثَتْهُما كَثيراً كثيراً، وخَلَّدتْ موتَ أَبيها وأَخويها بِشعرِها مِنْ شِدَّةِ ما أَطلَقَهُ قَلبُها مِنْ لَواعجِ الحُزنِ، وما ذَرَفَتْهُ عيناها مِنْ دموعِ الأَسى، ومِنْ ثَمَّ صارَتْ مضربَ مثلٍ عندَ العربِ في الحُزنِ والرِّثاءِ، حَتَّى قيلَ:

«أَشدُّ حُزناً مِنَ الخنساءِ، وأَبكَى مِنَ الخَنساءِ».

❋ ❋ ❋

لقَدْ تَرَكتْ وَفاةُ ومَقتَلُ أَخوَي «الخنساءِ» مُعاويَةَ وصَخرٍ، نُدوباً مِنَ الحُزنِ والأَسَى عَلى صَفحاتِ حياةِ أُختِهما، فَراحَتْ تَبكيهما طِوالَ حياتِها، ولا سيَّما أَخاها صَخراً الَّذِي خَلَّفَ موتُهُ في صَدرِها لَوعَةً وكَمداً لَمْ يُفارِقْها طِوالَ حياتِها.

فَعندما قَتلَ بَنو مُرَّة أَخاها «مُعاويَةَ بنَ عمرو» في إِحدَى غَزواتِ بني سليمٍ مَعهُمْ، بَكَتْهُ ورَثَتْهُ بِشعرِها، ومِمَّا قالَتهُ في رِثائِهِ مُفاخرَةً بِشجاعَتِهِ:

أَلا مـا لِـعَـيـنَـيّ أَلا مـا لَـهـا؟ لَـقَـد اخـضَـلَّ الـدَّمـعُ سِـربـالَـهـا
فَـآلَـيـتُ آسـي عَـلـى هـالـكٍ وأَسـأَلُ نـائِـحـةً: مـا لَـهـا؟
أَبـعـدَ ابـن عـمـرو مِـنْ آلِ الـشَّـريـ ـدِ حَـلَّـتْ بِـهِ الأَرضُ أَثـقـالَـهـا
فَـإِنْ تَـكُ مُـرَّةُ أَودَتْ بِـهِ، فَـقَـدْ كـانَ يُـكـثِـرُ ثِـقـالِـهـا

وكانَ «مُعاويَةُ» قبلَ مَقتَلِهِ قَدْ أَكثَرَ في بَني مُرَّةَ القَتلَ، وقَتلَ خيرَةَ فُرسانِها. أَمَّا صَخرٌ، ويا لَهُ مِنْ صَخرٍ! فَقَدْ فَجَّر يَنابيعَ الحُزنِ في شَرايينِ قَلبِها، وأَيقظَ غُيومَ الأَسى والكمدِ في سُرادقِ نَفسِها، فَبَكَتْهُ طَويلاً، وبَكاهُ الشِّعرُ والزَّمنُ مَعها، بَلْ كانَ بُكاؤُها الطَّويلُ عَليهِ لِلحُزنِ مَذهَباً، ونَدبُها لَهُ لِلرِّثاءِ عِلماً وفَنّاً، فَكانَتْ هيَ نَفسُها أَبكَى مِنْ بُكائِها عَلى صَخرٍ، وأَحزنُ مِنْ حُزنِها على موتِهِ، لَقَدْ وَجَّهَتْ كُلَّ شِعرِها، وكُلَّ عبقَرِيَّةِ حُزنِها نَحوَ رِثاءِ أَخيها صَخرٍ.

لَقَدِ انْفَلتَ الحُزنُ في ليلِها ونَهارِها، وأَينَما أَدارَتْ وَجهَها، فَكُلُّ شَيءٍ حَولَها يُذَكِّرُها

بِأَخيها، فَالشَّمسُ إِذا طَلعَتْ تُذَكِّرُها بِغاراتِ صَخرٍ، والشَّمسُ إِذا غَربَتْ تُذَكِّرُها ضِيافَةَ صخرٍ:

يُذَكِّرُني طُلوعُ الشَّمسِ صَخراً وأَذكُرُهُ لِكُلِّ غروبِ شَمسِ

وتَقولُ:

فَلا واللهِ لا أَنساكَ حَتَّى أُفارِقَ مُهجَتي أَو يُشقَّ رَمسي
فَقَدْ وَدَّعتُ يومَ فراقِ صخرٍ أبي حسَّانَ، لَذَّاتي وأُنسي
فَيا لَهفي عليهِ ولهفَ أُمي أَيُصبِحُ في الضَّريحِ وفيهِ يُمسي؟!

ومِنْ شُدَّةِ حُزنِها، ولولا كثرَةُ الباكينَ حولَها عَلى إِخوانِهِمْ لَقَتلَتْ نَفسَها وأَراحَتْ حياتَها:

ولولا كثرَةُ البَاكينَ حَولي عَلَى إِخوانِهِمْ لَقتلتُ نَفسي

حَتَّى إِنَّها في مواسمِ الشِّعرِ في سوقِ عكاظٍ كانَتْ تَبكيهِمْ، وجعلَتْ عَلى هودَجِها رايَةً سوداءَ تُعبِّرُ عَنِ الحُزنِ، وكانَتْ تَقولُ: «أَنا أَعظَمُ العربِ مُصيبَةً»، حيثُ قُتلَ أَبوها وأَخواها.

وعندما قتلَ المسلمونَ في غزوَةِ بدرٍ عَلى يَدِ «حمزةَ بنِ عبدِ المُطَّلبِ» عمِّ النَّبيِّ ﷺ لِهندِ بنتِ عُتبَةَ أَباها وأَخاها وعمَّها، قالَتْ: أَنا أَعظمُ مِنَ الخَنساءِ مُصيبَةً! وأَمرَتْ بِرايَةٍ سوداءَ، فَسُوِّمَ بِها هودَجُها، ثُمَّ خَرجَتْ تَشهدُ مواسمَ عكاظٍ، ولمَّا اقترَنَ جَملُها بِجملِ الخنساءِ، قالتْ لها الخنساءُ:

ـ مَنْ أَنتِ يا أُخيَّةُ؟

قالتْ: أَنا هندُ بنتُ عُتبَةَ، أَعظمُ العربِ مُصيبَةً. وقَدْ بَلغَني أَنَّكِ تُعاظمينَ العربَ

بِمُصيبَتِكِ، فَبِمَ تُعاظمينَهُمْ؟

قالَتِ الخنساءُ: بِعمرو بنِ الشَّريدِ، وبِمعاويَةَ وصخرٍ ابنَي عمرو. وبِمَ تُعاظمينَهُمْ أَنتِ؟

قالتْ هندُ: بِأَبي عُتبَةَ بنِ ربيعةَ، وبِأَخي الوَليدِ، وبِعمِّي شيبَةَ بنِ رَبيعةَ!

فَقالَتِ الخنساءُ: أَوَسَواءٌ هُمْ عندَكِ؟

ثُمَّ أَنشَدَتْ تَقولُ:

أَبكي أَبي عمراً بِعَينٍ غَزيرَةٍ فَليلٌ إِذا نامَ الخَليُّ هُجودُها

وصِنوي، لا أَنسَى مُعاويَةَ الَّذِي لَهُ مِنْ سُراةِ الحَرَّتينِ وقودُها

وصخراً ومَنْ ذا مِثلُ صَخرٍ إِذا غدا بِساهَمَةِ الآطالِ قِباً يَقودُها

فَذَلكَ، يا هندُ الرَّزيَّة فَاعلَمي ونيرانُ حربٍ إِذا شَبَّ وقودُها

ولَمْ تَكُن الخنساءُ قَدْ أَسلَمَتْ بَعدُ. فَلقَدْ خَصَّتِ الخنساءُ القسمَ الأَكبرَ مِنْ شِعرِها في رِثاءِ أَخيها صَخرٍ، وفي مَدحِ صفاتِهِ وشَجاعَتِهِ.

❋ ❋ ❋

عُمِّرَتِ الخنساءُ طَويلاً حَتَّى أَدرَكَتِ الإِسلامَ، ووَفدَتْ عَلى النَّبيِّ ﷺ في المَدينةِ المُنوَّرةِ مُهاجرَةً وأَعلَنتْ إِسلامَها هيَ وأَولادُها جميعاً، إِلا ابنُها الأَكبرُ «عباسُ بنُ مرداسَ» فَإِنَّهُ أَسلمَ بَعدَ فَتحِ مَكَّةَ، وكانَ مِن المُؤَلَّفةِ قُلوبُهُمْ.

وكانَ النَّبيُّ ﷺ يُعجَبُ بِشعرِها كثيراً، ويَعتبرُها أَشعرَ نساءِ العربِ، كما كانَ يَستَنشدُها ويقولُ لها: «هيه، يا خنَّاسُ» ويُومئُ لها بِيدِهِ ﷺ.

ويَومَ قدمَ عديُّ بنُ حاتمٍ عَلى رَسولِ اللهِ ﷺ وقالَ لَهُ: يا رَسولَ اللهِ، إنَّ فينا أَشعرَ النَّاسِ، وأَسخَى النَّاسِ، وأَفرسَ النَّاسِ. أَمَّا أَشعرُ النَّاسِ فَامرؤ القيسِ، وأَمَّا أَسخَى النَّاسِ فَحاتمُ بنُ سَعدٍ، وأَمَّا أَفرسُ النَّاسِ فَعمرو بنُ مَعدِ يَكربَ.

فَابْتَسَمَ لَهُ النَّبيُّ ﷺ، وقالَ لَهُ: **«ليسَ كما قُلتَ يا عَديُّ. أَمَّا أَشعرُ النَّاسِ فَالخَنساءُ بنتُ عَمرو، وأَمَّا أَسخَى النَّاسِ فَمُحمَّدٌ ـ يَعني نَفسَهُ ﷺ ـ وأَمَّا أَفرسُ النَّاسِ فَعليُّ بنُ أَبي طالبٍ»**.

ولِهذا، لَمَّا قيلَ لِلشَّاعرِ جريرٍ فيما بَعدُ: مَنْ أَشعرُ النَّاسِ؟

قالَ: أَنا لولا الخنساءُ. قيلَ: بِمَ فَضَّلَتْكَ؟ قالَ: بِقولِها:

إنَّ الزَّمانَ وما يَفنَى بِهِ عجبٌ أَبقَى لَنا ذَنباً واسْتُؤصِلَ الرَّاسُ

إنَّ الجديدين في طولِ اختلافِهِما لا يَفسدانِ وإنَّما يَفسدُ النَّاسُ

ومِمَّا يُروَى في هذا الصَّددِ أَيضاً أَنَّ الشاعرَ المعروفَ «المُفَضَّلَ الضّبيَّ» كانَ مِمَّنْ يَرتادونَ مجلسَ الخليفَةِ العباسيِّ «المهديِّ»، فَدخلَ عليهِ يَوماً، فَسَأَلَهُ المهديُّ: يا مُفَضَّلُ، أَيُّ بيتٍ قالَتْهُ العربُ أَفخرُ؟

فقالَ المُفَضَّلُ: بيتُ الخَنساءِ.

وكانَ المهديُّ مُستَلقياً، فَاسْتَوى جالِساً وقالَ:

ـ وأَيُّ بيتٍ هوَ؟

فقالَ:

وإنَّ صخراً لَتَأْتَمُّ الهُداةُ بِهِ كَأَنَّهُ عَلَمٌ في رأسِهِ نارُ

وذَلكَ مِنْ قَصيدةٍ طويلَةٍ في رثاءِ ومدحِ أَخيها صَخرٍ، تَقولُ فيها:

وإِنَّ صخراً لِتَأتَمُّ الهُداةُ بِهِ ... كَأَنَّهُ عَلَمٌ في رأسِهِ نارُ

جَلِدٌ جميلُ المُحيّا كاملٌ ورعٌ ... ولِلحروبِ غداةَ الرَّوعِ مِسعارُ

حَمَّالُ أَلويَةٍ هبَّاطُ أَوديَةٍ ... شَهَّادُ أَنديَةٍ للجيشِ جَرَّارُ

نَحَّارُ راغيَةٍ مِلجاءُ طاغيَةٍ ... فَكَّاكُ عانيَةٍ لِلعظمِ جبَّارُ

لَمْ تَرَهُ جارَةٌ يَمشي بِساحَتِها ... لِريبَةٍ حينَ يُخلي بيتَهُ الجارُ

ومُطعِمُ القَومِ شَحماً عندَ مَسغَبِهِمْ ... وفي الجُدوبِ كريمُ الجَدِّ ميسارُ

قَدْ كانَ خالصَتي مِنْ كُلِّ ذي نَسبٍ ... فَقدْ أُصيبَ فَما للعَيشِ أَوطارُ

طلقُ اليدينِ لِفعلِ الخيرِ ذو فجرٍ ... ضَخمُ الدَّسيعَةِ بِالخيراتِ أَمَّارُ

❋ ❋ ❋

كانتِ الخنساءُ مُخلصَةً في إسلامِها أَشدَّ الإخلاصِ، وتَذودُ عَنِ الإسلامِ بِشعرِها وبِحياتِها، وبِحياةِ أَبنائِها، وبُكلِّ ما تملكُ.

وردَ في «الاستيعابِ»: أَنَّها حَضرَتْ حربَ القادسيَّةِ ومعَها بَنوها، أَربعةُ رجالٍ، فقالَتْ لَهُمْ مِنْ أَوَّلِ اللَّيلِ:

«أَيْ بُني، لَقَدْ أَسلَمتُمْ طائِعينَ، وهاجرتُمْ مُختارينَ، ووالله الَّذِي لا إِلَهَ غيرُهُ إِنَّكُمْ لَبَنو رَجلٍ واحدٍ، كما إِنَّكُمْ بَنو امرأَةٍ واحدَةٍ، ما خُنتُ أَباكُمْ، وما فَضحْتُ خالَكُمْ، ولا هَجَّنتُ

حَسَبَكُمْ، ولا غَيَّرتُ نَسَبَكُمْ، وقَدْ تعلمونَ ما أَعدَّ اللهُ لِلمُسلمينَ مِنَ الثَّوابِ الجزيلِ في حربِ الكافرينَ، واعلَموا أَنَّ الدَّارَ الباقِيَةَ خيرٌ مِنَ الدُّنيا الفانيَةِ، يَقولُ اللهُ تَعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: 200].

فَإِنْ أَصبَحتُمْ غداً إِنْ شاءَ اللهُ سالمينَ، فَاغدوا إِلى قِتالِ عَدوِّكُمْ مُستَبصرينَ، وبِاللهِ على أَعدائِهِ مُسْتَنصرينَ، فَإِذا رأَيتُمُ الحربَ قَدْ شَمَّرَتْ عَنْ ساقِها، واضْطَرَمَتْ لَظىً عَلى سِباقِها، وجَلَّلَتْ ناراً عَلى أَوراقِها، فَتَيَمَّموا وَطيسَها، وجالِدوا رَئيسَها عِندَ احتدامِ خَميسِها، تَظفَروا بِالغُنمِ والكرامَةِ في دارِ الخُلدِ والمُقامَةِ».

فَخرجَ أَبناؤُها قابِلينَ لِنُصْحِها، عازمينَ عَلى قَولِها، فَلمَّا أَضاءَ لَهُمُ الصُّبحُ بادروا مَراكزَهُمْ، وأَنشَأَ أَوَّلُهُمْ يَقولُ:

يا إِخوَتي إِنَّ العجوزَ النَّاصِحَهْ ... قَدْ نَصَحَتْنا، إِذْ دَعَتْنا البارِحهْ
مَقالَةً ذاتَ بيانٍ واضِحَهْ ... فَبادروا الحربَ الضَّروسَ الفاضِحهْ
وإِنَّما تَلقَونَ عندَ النَّائِحَهْ ... مِنْ آلِ ساسانَ، كِلاباً نابِحَهْ
قَدْ أَيقَنوا مِنكُمْ بِوَقعِ الجائِحَهْ ... وأَنتُمْ، بينَ حياةٍ صالِحَهْ
أَو ميتَةٍ تُورِثُ غُنْماً رابِحَهْ

وتَقَدَّمَ فَقاتَلَ حَتَّى قُتِلَ، ثُمَّ حملَ الثَّاني وهوَ يَقولُ:

إِنَّ العَجوزَ ذاتُ حَزمٍ وجَلَدْ ... والنَّظرِ الأَوفَقِ والرَّأيِ السَّدَدْ
قَدْ أَمرَتْنا بِالسَّدادِ والرَّشَدْ ... نَصيحَةً مِنها، وبرّاً بِالوَلَدْ

فَباكِروا الحرَبَ حُماةً بِالعَدَدْ إِمَّا لِفوزٍ بارِدٍ عانَ الكَبَدْ
أَو ميتَةٍ تُورِثُكُمْ غِنَمَ الأَبَدْ في جَنَّةِ الفِردوسِ والعيشِ الرَّغدْ

فَقاتَلَ حَتَّى اسْتُشهدَ، ثُمَّ حملَ الثَّالث وهوَ يَقولُ:

واللهِ لا نَعصي العجوزَ حرفاً قَدْ أَمَرَتْنا حرباً وعطفاً
نُصحاً وبرّاً صادِقاً ولُطفاً فَباكروا الحربَ الضَّروسَ زَحفاً
حَتَّى تَلُفوا آلَ ساسانَ لَفّاً أَو تَكشفوهُمْ عَنْ حِماكُمْ كَشفاً
إِنَّا نَرَى التَّقصيرَ عَنْهُمْ ضَعفاً والقَتلَ فيكُمْ نَجدةً وغُرماً

فَقاتَلَ حَتَّى اسْتُشهدَ، ثُمَّ حملَ الرَّابعُ وهوَ يَقولُ:

لَسْتُ لِخَنساءَ ولا لِلأَحزَمْ ولا لِعمرو ذي الثَّناءِ الأَقدَمْ
إِنْ لَمْ أَرَ في الجيشِ جيشِ الأَعجَمْ ماضٍ عَلى الهَولِ خِضِمٌّ خَضْرَمْ
إِمَّا لِفوزٍ عاجلٍ ومَغنَمْ أَو لِوَفاةٍ في السَّبيلِ الأَقدمْ

فَقاتَلَ حَتَّى اسْتُشهدَ.

فَلمَّا بَلغَها خبرُ اسْتِشهادِ أَبنائِها جَميعاً، قالَتْ: «الحمدُ للهِ الَّذِي شَرَّفَني بِقَتلِهِمْ، وأَرجو مِنْ رَبِّي أَنْ يَجمعني بِهِمْ في مُستَقَرِّ رَحمتِهِ».

فَكانَ الخليفَةُ «عُمرُ بنُ الخَطَّابِ» رضي الله عنه يُعطي الخَنساءَ أَرزاقَ أَولادِها الأَربعَةِ، لِكُلِّ واحدٍ مئَتي دِرهَمٍ حَتَّى قُبضَ، وذَلكَ إِكراماً لَها ولَهُمْ.

ويُقالُ: إنَّ الشاعرَ المعروفَ دريدَ بنَ الصُّمَّةِ تَعرضَ لِخُطبَتِها فَأبتْ وفَضلتْ أَنْ تعيشَ أرملَةً طوالَ حياتِها، وقَدْ كانَ الشَّاعرُ دريدُ قَدْ شُغفَ بِها حُباً، ومِمَّا أَنشدَهُ في حُبِّها قولُهُ:

أَخُنَّاسُ، قَدْ هامَ الفُؤادُ بِكُمْ وأَصابَهُ نبلٌ مِنَ الحُبِّ

تُوفيَتِ الخنساءُ سَنةَ (664) ميلاديَّةً ولها مِنَ العُمرِ (89) سَنةً، ويُقالُ: إنَّها عميَتْ في أَواخرِ حياتِها مِنْ شِدَّةِ حُزنِها وبُكائِها.

ووَصلَ إِلينا مِنْ شعرِها ديوانٌ يَتألَّفُ مِنْ مَجموعةٍ مِنَ القَصائِدِ، ويَحوي (915) بيتاً، أَغلَبُهُ في رِثاءِ أَخيها صَخرٍ.

ومِنْ شعرِها الَّذِي ذَهبَ مَذهبَ الحكمةِ، قولُها الَّذِي ذَكرَهُ الشَّاعرُ جَريرٌ:

إِنَّ الزَّمانَ وما يَفنَى بِهِ عجبٌ أَبقَى لَنا ذَنباً واسْتُؤصِلَ الرَّاسُ

إِنَّ الجديدين في طولِ اختلافِهِما لا يَفسدانِ وإِنَّما يَفسدُ النَّاسُ

ومِنْ ثَمَّ ذَهبَ حزنُها مذهبَ الأَمثالِ بينَ النَّاسِ في الماضي والحاضِرِ والمُستقبلِ، يَتشَبَّهُ بِهِ الشُّعراءُ بِشعرِهِمْ بِأَجملِ المعاني والصُّورِ قَديماً وحديثاً، فَمِنْ ذَلكَ ما قالَهُ الشَّاعرُ ابنُ نَباتَةَ المصريُّ:

وما لي لا أَبكي على دُرٍّ مِبسَمِ كما بَكَتِ الخنساءُ عَلى صَخرِ

وما قالَهُ أَميرُ الشُّعراءِ أَحمدُ شَوقي في رثاء أحدهم:

لو أُخِّرَتْ بِالعيشِ بَعدَكَ ساعةً لَبَكَتْ عليكَ بِمدمعِ الخنساءِ

الأَسْئِلَةُ وَالْمُنَاقَشَةُ

1 ـ لِماذا فَرِحَتِ الخنساءُ عندما وصلَها خبرُ اسْتشهادِ أَبنائِها؟

2 ـ إِلى مَنْ يَرجعُ نسبُ الخنساءِ، وما اسمُها الحقيقيُّ؟

3 ـ كيفَ كانَ العصرُ الَّذِي عاشَتْ فيهِ الخَنساءُ؟

4 ـ ماذا فَعلَ في نفسِ الخَنساءِ مَقتلُ أَخويها؟

5 ـ كيفَ كانَ حالُ الخنساءِ في مواسمِ الشِّعرِ في سوقِ عكاظٍ؟

6 ـ ماذا كانَ النَّبيُّ ﷺ يَعتبرُ الخنساءَ، وماذا كانَ يَقولُ لها؟

7 ـ ما هوَ أَفخرُ بيتٍ في شعرِ الخنساءِ؟

8 ـ ماذا قالتِ الخنساءُ عندما بَلغَها موتُ أَبنائِها في حربِ القادسيَّةِ؟

حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ
شَاعِرُ الرَّسُولِ ﷺ
(. . . ـ 674م)

الحَمدُ للهِ رَبِّ العالمينَ، والصَّلاةُ والسَّلامُ عَلى سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ سَيِّدِ الأَنْبياءِ والمُرسلينَ، وبَعد:

أَعِزَّائي:

سَنَقرأُ في هَذِهِ الصَّفحاتِ اليَسيرَةِ قِصَّة أَحدِ شُعراءِ العربِ الَّذينَ عاشوا في الجاهليَّةِ وأَدركوا الإِسلامَ، ونالوا شهرةً واسِعةً في التَّاريخِ العربيِّ والإِسلاميِّ، وكانَ لَهُمْ حُضورُهُمُ القَويُّ عَلى مسرحِ الأَحداثِ في تاريخِ هذِهِ الأُمَّةِ.

وقفَ هذا الشَّاعرُ مُنتَصبَ القامَةِ، مُحلِّقاً في سماءِ الشِّعرِ والبيانِ وهوَ يَذودُ عَنِ اللهِ ورَسولِهِ، ويَدفَعُ عَنِ المسلمينَ أَذَى لِسانِ قُريشٍ وهجاءَ شُعرائِها للنَّبيِّ ﷺ والمُسلمينَ.

لَقَدْ حملَ لِواءَ الجهادِ بِالكلمَةِ مُستَجيباً لِدعوَةِ الرَّسولِ الكريمِ ﷺ إِلى هكذا نَوعٍ مِن الجِهادِ، وأَعلى لِلإِسلامِ ولِلمسلمينَ رايَةَ النَّصرِ بِسحرِ بيانِهِ، وبِقوَّةِ شعرِهِ الَّذِي نَفذَ في نُفوسِ الأَعداءِ وسَمَّمَ عُنفوانَهُمْ، وحَطَّم لَهُمْ مَعنوياتِهِمْ قبلَ أَنْ تَصِلَهُمْ أَو تَنالَهُمُ السُّيوفُ والرِّماحُ.

وكانَ هذا الشَّاعرُ المُجاهدُ يُمَثِّلُ أَركانَ الحربِ الإعلاميَّةِ والنَّفسيَّةِ في جيشِ التَّحريرِ الإسلاميِّ الَّذِي كانَ يَقودُهُ النَّبيُّ ﷺ ضِدَّ أَعداءِ اللهِ ورَسولِهِ مِنْ قُريشٍ وغيرِها مِنَ الأَحلافِ الَّتي اجتَمَعَتْ مِنْ أَجلِ الإجهازِ عَلى الدَّعوَةِ الإسلاميَّةِ في المدينَةِ المُنوَّرةِ.

فَهَلْ عَرفتُمْ مَنْ يَكونُ هذا الشَّاعرُ؟

إِنَّهُ «حسَّانُ بنُ ثابتٍ» شَاعرُ الرَّسولِ ﷺ، الشَّاعرُ الَّذِي أَيَّدَهُ اللهُ ﷻ بِروحٍ مِنْ عندِهِ، فَراحَ يَنتَصرُ للهِ ورَسولِهِ بِشعرِهِ بِكُلِّ ما أُوتيَ مِنْ قُوَّةِ الفكرِ والخيالِ والبيانِ.

فَتعالوا الآنَ لِنقترِبَ قليلاً مِنْ حياةِ هذا الشَّاعرِ الَّذِي مَدَّ اللهُ لَهُ مِنْ عُمرِهِ، ونَتَجوَّلَ في أَثرِهِ عبرَ هذِهِ السُّطورِ والصَّفحاتِ.

❋ ❋ ❋

لَمْ يَذكُرِ المُؤرخونَ لنا عامَ ولادةِ الشَّاعرِ «حسَّانَ بنِ ثابتٍ» رضي الله عنه، ويُرَجِّحونَ أَنَّهُ ولِدَ في المدينَةِ المُنوَّرةِ، قبلَ ميلادِ النَّبيِّ ﷺ بِنحوِ (8) سَنواتٍ.

يَرجعُ أَصلُ الشَّاعرِ «حسَّانَ بنِ ثابتٍ» إِلى قَبيلَةِ «الخزرَجِ» وهُمْ عَربٌ يَمانيونَ هاجروا مِنَ اليَمنِ إِلى الحجازِ، وأَقاموا في المدينَةِ المُنوَّرةِ «يَثربَ» مُنذُ أَوَّلِ نُشوئِها.

كانَ والدُ «حسَّانَ» مِنْ أَشرافِ قَبيلَةِ الخزرَجِ، ومِنْ وجهاءِ مَدينَةِ «يَثرب» فَنشأَ «حسَّانُ» في بيتِ أَبيهِ نَشأَةَ أَبناءِ الفُضلاءِ والأَشرافِ، مُتقلِّباً في النَّعيمِ والجاهِ والثَّراءِ، وكانَ لِمَوقِعِ المدينَةِ المُنوَّرةِ «يَثرب» أَهميَّةٌ كبيرَةٌ في ذَلكَ الحينِ، فهيَ مُلتَقَى الوافدينَ مِنَ العراقِ وبلادِ الشَّامِ إِلى «مَكَّةَ» في مواسمِ الحجِّ إِلى الكعبَةِ، كما أَنَّها تَقَعُ على طَريقِ التِّجارَةِ بينَ بِلادِ

اليَمنِ وبِلادِ الشَّامِ، ولعَلَّ هذا ما جعلَ أَهلَ المدينَةِ وسُكَّانَها في عيشٍ رَغيدٍ، وفي ثراءٍ كبيرٍ، إِذْ كانَ جُلُّهُمْ مِنَ التُّجَّارِ والأَثرياءِ والمُلَّاكِ، وهذا ما وَفَّر أَيضاً لِلمدينَةِ جَوّاً علميّاً وأَدبيّاً كَجارَتِها مَدينَةِ «مَكَّةَ».

وفي هذا الجَوِّ الَّذِي يُحيطُ بِهِ النَّعيمُ والرَّخاءُ، وتَعمُّهُ الخيراتُ نَشأَ «حسَّانُ بنُ ثابتٍ» مُطَّلعاً عَلى ثَقافاتِ العربِ، ميالاً لِلشِّعرِ، مُتقِناً قَرضَهُ.

ولَقَدْ كانَتْ قبيلَةُ الخزرَجِ تَعيشُ في المدينَةِ المُنوَّرَةِ إِلى جانبِ قَبيلَةِ «الأَوسِ»، وكانتْ هاتانِ القبيلتانِ في حالَةِ نزاعٍ دائِمٍ مَعَ بَعضَهِما مِنْ أَجلِ الزَّعامةِ على المَدينةِ المنوَّرةِ والتَّحكُّمِ بِحياتِها الاقتصاديةِ والسِّياسيَّةِ، وهذا النِّزاعُ كَثيراً ما كانَ يَتحوَّلُ إِلى مُساجلاتٍ كلاميَّةٍ، وإِلى مَعاركَ شعريَّةٍ، فكانَ لكُلِّ قبيلَةٍ شاعرُها الخاصُّ الَّذِي يُدافِعُ عنها ويُشيدُ بِأَمجادِها، فكانَ «قيسُ بنُ الخَطيم» شاعرَ الأَوسِ، وكانَ «حسَّانُ بنُ ثابتٍ» شاعرَ الخزرَجِ، ودائِماً كانَتْ لَهُ الغَلبَةُ والتَّفوُّقُ في الشِّعرِ عَلى خَصمِهِ، بَلْ لَمْ يُجاريهِ في شعرِ الفَخرِ والمديحِ والهجاءِ أَحدٌ في المدينةِ المُنوَّرةِ وما حولَها مِنْ بلادِ الحجازِ.

ذاعَ صيتُ الشَّاعرِ «حسَّانَ بنِ ثابتٍ» كَشاعرٍ حاذقٍ مُجرَّبٍ في كافَّةِ أَنحاءِ الجزيرَةِ العربيَّةِ، حتَّى وصلَ صيتُهُ إِلَى مُلوكِ الغَساسِنَةِ، وملوكِ الحيرَةِ، فَتوافدَ النَّاسُ إِليهِ يَسمعونَ شعرَهُ، وخاصَّةً في مواسِمِ الشِّعرِ الَّتي كانتْ تُعقَدُ كُلَّ عامٍ في سوقِ عكاظٍ قَريباً مِنْ «مَكَّةَ»، كما تَسابَقَ الملوكُ على دعوَتِهِ إِليهِمْ لِيَمدَحَهُمْ.

وكانَ لِلمُساجلاتِ الشِّعريَّةِ الَّتي تَقعُ بينَهُ وبينَ خُصومِهِ في المَدينَةِ المُنوَّرةِ أَثرُها في اتِّساعِ

شُهرَتِهِ بينَ العربِ، وخاصَّةً بعدَ أَنْ رَدَّ على خَصمِهِ «قيس بنِ الخَطيمِ» بِقصيدةٍ يُفاخرُ فيها بِقومِهِ «الخزرجِ» ويُعدِّدُ فيها شَمائِلَهُمْ، مِنْ كرمٍ وشجاعةٍ ومروءَةٍ، ويمدحُ فيها شَرفَ أَصلِهِمْ ونَسبِهِمْ:

لَعمْرُ أَبيكِ الخيرِ، يا شَعثَ، ما نَبا ... عليَّ لِساني، في الخُطوبِ، ولا يَدي
لِساني وسيفي صارمانِ كِلاهُما ... ويبلغُ ما لا يبلغُ السيفُ مِذْوَدي
وإِنِّي لَمُعطٍ ما وَجدتُ، وقائِلٌ ... لِمَوقِدِ ناري ليلَةَ الرِّيحِ: «أَوقِدِ»
وإِنِّي لَحلوٌ، تَعتَريني مَرارَةٌ ... وإِنِّي لَتَرَّاكٌ، لِما لَمْ أُعوَّدِ

❋ ❋ ❋

اتَّصلَ الشَّاعرُ «حسَّانُ بنُ ثابتٍ» بِبلاطِ ملوكِ الحيرَةِ، وكَذَلكَ بِأُمراءِ مُلوكِ الغَساسنَةِ. اتَّصلَ في البِدايَةِ بِملوكِ بَني غَسَّانَ ومَدحَهُمْ بِما فيهِ الكفايَة، فَأَحبُّوا شعرَهُ وقَدَّموهُ على غيرِهِ مِنَ الشُّعراءِ، وأغدقوا عليهِ بِالعَطايا والهَدايا بِما لَمْ يُغدقوا على غيرِهِ بِها، بَلْ جَعلوا لَهُ مُرَتَّباً سَنوياً وعاملوهُ مُعاملَةَ الأُمراءِ، وكَأَنَّهُ واحدٌ مِنهُمْ، وقالَ فيهِمْ مِنْ شعرِ المديحِ ما لَمْ يَقلْهُ غيرُهُ مِنَ الشُّعراءِ الَّذينَ كانوا يَغشَونَ بلاطَهُمْ، فَقَدْ كانَ مَدحُهُ لَهُمْ قَوياً جَزلاً وفَريداً لَمْ يَستَطِعْ أَحدٌ أَنْ يُجاريَهُ بِمثلِهِ، ومِنْ مدحِهِ لَهُمْ هذِهِ الأَبياتُ:

يُغشَونَ حَتَّى ما تَهرُّ كِلابُهُمْ ... لا يَسأَلونَ عَنِ السَّوادِ المُقبلِ
يَسْقونَ مِنْ وَردِ البَريصِ عَليهِمْ ... بردَى يُصَفِّقُ بِالرَّحيقِ السَّلسَلِ
بيضُ الوجوهِ كريمَةٌ أَحسابُهُمْ ... شُمُّ الأُنوفِ مِنَ الطِّرازِ الأَوَّلِ

وكذَلِكَ مَدحَ «حسَّانُ بنُ ثابِتٍ» مُلوكَ الحيرَةِ، وقَرَّبَهُ إِليهِ الملكُ «النُّعمانُ» المُلقَّبُ بِـ «أَبي قابوسٍ» وجعلَهُ شاعرَ بِلاطِهِ بَدلاً مِنَ «النَّابِغَةِ الجعديِّ» بَعدَ أَنْ وقَعَ بينَ الملِكِ وشاعرِهِ «النَّابِغةِ» شَيءٌ مِنَ الجفاءِ والهجرِ.

❊ ❊ ❊

بعدَ ظهورِ الإسلامِ وهجرةِ المُسلمينَ إلى المدينَةِ المُنوَّرةِ، اعتنقَ «حسَّانُ بنُ ثابتٍ» الإسلامَ، وتركَ حياةَ اللَّهوِ والتَّرفِ، وانْصرفَ يَنصرُ الدِّينَ الجديدَ بِشعرِهِ، ويذودُ عنهُ بِلسانِهِ، وطفِقَ يمدحُ الرَّسولَ الكريمَ ﷺ بِشعرِهِ مُتباهياً أَمامَ قُريشٍ بِخلالِهِ وصفاتِهِ الحميدةِ، صادحاً بِما تَحملُهُ رِسالةُ الإِسلامِ مِنْ مبادئَ إِنسانيَّةٍ، وقيمٍ أَخلاقيَّةٍ، وعقيدةٍ قويمةٍ، بِأُسلوبٍ شعريٍّ رصينٍ، رادّاً كيدَ قُريشٍ في نَحورِهِمْ بَعدَ هجائِهِمْ لِلرَّسولِ الكريمِ ﷺ، فَيقولُ:

نَـبـيٌّ، أَتـانـا بَـعـدَ يَـأسٍ، وفَـتـرَةٍ ... مِنَ الرُّسلِ والأَوثانَ في الأَرضِ نعبدُ
فَـأَمـسى سِـراجـاً مُـسـتـنيـراً وهـاديـاً ... يَـلوحُ، كـمـا لاحَ الـصَّـقـيلُ الـمُـهـنَّـد
وأَنــذرنــا نــاراً، وبَــشَّــرَ جــنَّــةً ... وعَـلَّـمـنـا الإسـلامَ، فَـاللهَ نَـحـمـدُ
وأَنـت إِلـهُ الـخَـلـقِ ربـي وخـالـقـي ... بِذَلكَ ما عُمرتُ في النَّاسِ، أَشهدُ

كَما كانَ يَذكرُ مَثالبَ أَعداءِ الإِسلامِ، فيقولُ:

واللهِ، مـا فـي قُـريـشٍ كُـلِّـهـا نـفـرٌ ... أَكثرُ شَيخاً جباناً فاحشاً غُمُرا(1)

(1) الغمر: الجاهل الَّذِي لم يجرب الأمور.

هُذْرٌ، مَشائيمٌ، مَحرومٌ ثَويُّهُمْ[1] إذا تَرَوَّحَ[2] مِنهُمْ، زُوِّدَ القمرا

كَمْ مِنْ كريمٍ يَعضُّ الكلبُ مِئزرَهُ ثُمَّ يَفرُّ، إذا أَلقَمتَهُ الحجرَا

لولا النَّبيُّ، وقَولُ الحقِّ مَغضَبَةٌ لَما تَركتُ لكُمْ أُنثَى، ولا ذَكرا

فيَذكرُ أَنَّ قُريشاً يَهذرونَ في أقوالهم، ويكذبونَ في حديثِهِمْ، ويجرُّونَ الشُّؤمَ إِذْ يَتكلمونَ بِما لا يعرفونَ، وضَيفُهُمْ لا يَلقَى عندَهمْ كرمَ الضِّيافَةِ، وقَدْ بَلغَ مِنْ خِسَّةِ طباعِهِمْ أَنَّ الكلبَ يَفرُّ مِنْ سَيِّدِهِمْ، فَكيفَ بِالإِنسانِ؟!

لَقَدْ مَزَّقَ «حسَّانُ بنُ ثابتٍ» قُريشاً بِشعرِهِ شَرَّ ممزّقٍ، وأَرداها صَريعَةً تَجرُّ وراءَها ذُيولَ الخيبَةِ والنَّدامَةِ بِنضالِهِ الشِّعريِّ الَّذِي لمْ تَفتُرْ عزيمَتُهُ، ولَمْ تَهدأْ لَحظَةً واحدةً في حياتِهِ بعدَ إِسلامِهِ، وخاصَّةً عندَما كانوا يَتأَهبونَ لِلقتالِ، ويَستَعدُّ الفُرسانُ لِلِّقاءِ في ساحاتِ الوَغَى، فَكانَ شعرُهُ يَسبقُ ضَربَ السُّيوفِ، ويُجندلُ عَواطفَ الحماسِ في نُفوسِ القُرَشيِّينَ، فَيدبُّ في قُلوبِهِمُ الرُّعبُ والجبنُ والخوفُ والخوارُ، فَكانَ مِنهُمْ مَنْ يَرتَدُّ على عَقبيهِ مِنَ المعركةِ بِسَبَبِ ما يَنتابُهُ مِنْ خوفٍ وذُعرٍ مِنْ صَواعقِ البيانِ والشِّعرِ الَّتي يُرسلُها «حسَّانُ بنُ ثابتٍ» رضي الله عنه في سَماءِ المعركَةِ، فَتُصيبُ قُلوبَ المُشركينَ في صَميمِها.

وصَحيحٌ أَنَّ «حسَّانَ بنَ ثابتٍ» رضي الله عنه كانَ قليلَ الخَوضِ في الحروبِ، قَليلَ المُشاركةِ، ولَكنَّهُ خاضَ معركَةَ الجهادِ والنِّضالِ الإِعلاميِّ والسِّياسيِّ لِوحدِهِ، وكانَ مِنْ ورائِهِ

---

(1) ثَويّهم: ضيفهم.

(2) تروّح: سافر في العشي في القتال.

رَسولُ اللهِ ﷺ يَشدُّ مِنْ أَزرِهِ، ويُؤَجِّجُ مِنْ حماسِهِ، بِما يُبَشِّرُهُ بِهِ مِنْ ثوابٍ عظيمٍ عندَ اللهِ، ومِنْ نَعيمٍ مُقيمٍ أَعدَّهُ لِمَنْ يَنصرُ اللهَ ورَسولَهُ، ويَقفُ في وجهِ الطُّغاةِ المُستَبدينَ الَّذينَ يُريدونَ أَنْ يُطفئوا نورَ اللهِ بِأَفواهِهِمْ، واللهُ مُتِمُّ نورِهِ ولو كرِهَ المُشركونَ.

وما أَروعَ قَولَهُ، يُمجِّدُ انتصارَ المُسلمينَ على المُشركينَ غداةَ معركةِ بدرٍ الكُبرَى:

وخَبِّرْ بِالَّذي لا عيبَ فيهِ ... بِصدقٍ غيرَ إِخبارِ الكذُوبِ
بِما صَنعَ المليكُ غداةَ بَدرٍ ... لنا مِنَ المُشركينَ مِنَ النَّصيبِ
غداةَ، كَأَنَّ جَمعَهُمْ حِراءُ ... بَدَتْ أَركانُهُ جُنحَ الغُروبِ
فَلاقَيناهُمْ، منَّا بِجمعٍ ... كَأُسدِ الغابِ مِنْ مُردٍ وشيبِ
أَمامَ مُحمَّدٍ، قَدْ آزروهُ ... عَلى الأَعداءِ في رهجِ الحروبِ
فَغادرنا أَبا جهلٍ صَريعاً ... وعُتبَةَ، قَدْ تَركنا بِالجَبوبِ
وشيبَةً قَدْ تَركنا في رِجالٍ ... ذَوي حسَبٍ إِذا نَسبوا حسيبِ
يُناديهِمْ رسولُ اللهِ لَمَّا ... قَذفناهُمْ كَباكبَ في القَليبِ
أَلَمْ تَجدوا كلامي كانَ حقّاً ... وأَمرُ اللهِ، يَأخذُ بِالقلوبِ
فَما نَطقوا ولو نَطقوا لَقالوا: ... صَدَقتَ وكنتَ ذا رأي مُصيبِ

❋ ❋ ❋

لَقَدْ كانَ دِفاعُ «حسَّانَ بنِ ثابتٍ» عَنِ الإِسلامِ، وعنْ رسولِ اللهِ ﷺ مُهمَّةً جِهاديَّةً كلَّفَهُ

بِها النَّبيُّ ﷺ، عندَما تَرامَى إلى أَسماعِهِ هجاءُ المشركينَ لِلمُسلمينَ، قالَ حينَها مَقالَتَهُ الشَّهيرَةَ: «**ما مَنعَ الَّذينَ نَصروا اللهَ ورسولَهُ بِسيوفِهِمْ أَنْ يَنصروهُ بِلسانِهِمْ؟**».

فَأَخذَ «حسَّانُ» عَلى عاتِقِهِ القيامَ بِهذِهِ المُهمَّةِ، وطفقَ يُهيلُ عَلى قُريشٍ نِبالَ وسهامَ شعرِهِ، فَملأَ قُلوبَهمْ غيظاً وخَوراً، وغَزا نُفوسَهُمْ وهُمْ في عُقرِ دارِهِمْ.

ويُروَى أَنَّهُ لَمَّا عزمَ عَلى هِجائِهِمْ، قالَ لَهُ النَّبيُّ ﷺ: «وكيفَ تَصنَعُ بي؟».

قالَ: أَسُلُّكَ مِنهُمْ كما تُسَلُّ الشَّعرَةُ مِنَ العجينِ.

فَجعلَ لَهُ النَّبيُّ ﷺ أَبا بَكرٍ رضي الله عنه مُرشِداً لَهُ، يَدلُّهُ عَلى مَنْ يَستطيعُ هَجوَهُ مِنهُمْ، ويُفَصِّلُ لَهُ أَنسابَهُمْ، فَحصَرَ «حسَّانُ» كلامَهُ في المُشركينَ عامَّةً، وفي أَشَدِّهِمْ على رَسولِ اللهِ ﷺ إيذاءً، مثلَ: أَبي جهلٍ، وأَبي لَهبٍ، وأَبي سَفيانَ بنِ حربٍ.

ولَمْ يَكتَفِ «حسَّانُ» بِهَجوِ المشركينَ، وإِنَّما اجْتَهدَ في فَضحِ المُنافقينَ في المدينَةِ، الَّذينَ كانوا يُشَكِّلونَ القُوَّةَ الخفيَّةِ التِّي حاولَتِ الإِرجافَ في المدينَةِ، وحاوَلَتْ بَثَّ الدَّسائِسَ والفتنِ في صُفوفِ المُسلمينَ.

فَها هُوَ يَفضَحُ «الضَّحاكَ بنَ ثابتٍ» أَحدَ رُؤوسِ النِّفاقِ في المدينَةِ مِمَّنْ كانوا يُوالونَ اليَهودَ اللُّعناءَ، فَيقولُ:

مَنْ مُبْلِغ الضَّحاكَ أَنَّ عُروقَهُ ... أَعيَتْ عَلى الإِسلامِ أَنْ تَتَمَجَّدا

أُتِحبُّ يُهدانَ الحجازِ ودينَهُمْ ... كبدَ الحمارِ، ولا تُحبُّ مُحمَّدا؟

ديناً لَعمري لا يُوافِقُ دينَنا ... ما اسْتَنَّ آلٌ في الفضاءِ وخُودا

وهكذا، كانَ «حسَّانُ بنُ ثابتٍ»، شاعراً لِلرَّسولِ ﷺ، وصَوتاً مُناضِلاً وصادحاً يَذودُ عَنِ الإِسلامِ بِكُلِّ ما أُوتيَ مِنْ قُوَّةِ الفكرِ، وسعةِ الخيالِ، وحرارةِ الإِيمانِ.

تُوفيَ «حسَّانُ» في المدينَةِ المُنوَّرةِ سَنةَ (674) ميلاديَّةً، معَ بِدايَةِ العهدِ الأُمويِّ، تاركاً لَنا شعرَهُ الخالدَ، الَّذِي خلَّدَ أَمجادَ المُسلمينَ وانتصاراتِهِمْ في عهدِ النَّبيِّ ﷺ.

قالَ أَحدُهُمْ: فُضِّلَ «حسَّانُ» على الشُّعراءِ بِثلاثَةِ أَشياءَ:

كانَ شاعرُ الأَنصارِ في الجاهليَّةِ، وكانَ شاعرُ النَّبيِّ ﷺ في النُّبوَّةِ، وكانَ شاعرُ اليَمانيينَ في الإِسلامِ.

وقالَ عَالمُ اللُّغَةِ «المُبَرِّدُ»: أَعرقُ قَومٍ في الشُّعراءِ، آلُ «حسَّانَ بنِ ثابتٍ».

وذَلكَ لِما عُرفَ منهُمْ مِنَ الشُّعراءِ في تاريخِ العربِ والإِسلامِ، فَإِنَّهُمْ يعدونَ خمسةً في نَسقٍ، كُلُّهُمْ شعراء: سعيدُ بنُ عبدِ الرَّحمنِ بنِ حسانَ بنِ ثابتٍ بنِ المُنذرِ بنِ حرامٍ.

فَحسَّانُ شاعرٌ، وأَبوهُ المُنذرِ شاعرٌ، وجَدُّهُ حرامُ شاعرٌ، وابنُهُ عبدُ الرَّحمنِ شاعرٌ، وابنُ ابنِهِ سَعيدٌ شاعرٌ.

ولَقَدْ كانَ الشَّاعرُ الجاهليُّ «النَّابغةُ الجعديُّ» يَعتبرُهُ أَشعرَ النَّاسِ في بِلادِ الحجازِ عندَما كانَ يُحكِّمُ بينَ الشُّعراءِ في سوقِ عكاظٍ.

فَرحمَ اللهُ أَبا الوليدِ «حسَّانَ بنَ ثابتٍ الخزرَجيَّ الأَنصاريَّ» رَحمةً واسِعةً في الدُّنيا والآخرةِ، وجزاهُ عَنِ الإِسلامِ والمُسلمينَ الجزاءَ الأَوفَى.

الأَسْئِلَةُ وَالْمُنَاقَشَةُ

1 ـ ماذا كانَ «حسَّانُ» يُمثِّلُ بِالنِّسبَةِ لِلمسلمينَ؟

2 ـ إِلى مَنْ يرجعُ أَصلُ حسَّان، وماذا كانَ أَبوهُ؟

3 ـ لِماذا كانتْ قبيلةُ الأَوسِ والخزرجِ في حالةِ نزاعٍ دائمٍ قبلَ الإِسلامِ؟

4 ـ ما الَّذِي ساعدَ حسَّانَ على اتِّساعِ شُهرَتِهِ بينَ العربِ؟

5 ـ كيفَ عاملَ ملوكُ بَني غسَّان الشَّاعرَ حسَّانَ؟

6 ـ كيفَ وصفَ حسَّانُ قُريشاً؟

7 ـ كيفَ كانَ أَثرُ شعرِ حسَّانَ في نفوسِ المشركينَ قبلَ المعركةِ؟

8 ـ لِماذا قالَ المُبرِّدُ: أعرقُ قومٍ في الشُّعراءِ آلُ حسَّان؟

عُمَرُ بنُ أَبي ربيعةَ
سَاعرُ المرأةِ
(644 ـ 711م)

الحَمدُ للهِ رَبِّ العالمينَ، والصَّلاةُ والسَّلامُ عَلى سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ سَيِّدِ الأَنْبياءِ والمُرسلينَ، وبَعد:

أَعِزَّائي:

سَنَقرأُ في هَذِهِ الصَّفحاتِ اليَسيرَةِ قِصَّة شاعرٍ عربيٍّ مِنْ شُعراءِ الغزلِ والتَّرفِ في العَهدِ الأُمويِّ، كانَ حديثَ النَّاسِ في عصرِهِ، وهوَ أَوَّلُ شُعراءِ الغزَلِ والصَّبابَةِ بَعدَ ظهورِ الإِسلامِ في بِلادِ الحجازِ، وعلى وجهِ التَّحديدِ في مَكَّةَ والمَدينَةِ حاضرَتيّ الإِسلامِ وأعظَم مَعاقِلِهِ، ومَوطنَيّ المُقدساتِ الَّتي يَقصدُها الحَجيجُ والمُعتمرونَ مِنْ رِجالٍ ونِساءٍ.

لقَدْ كانَ هذا الشَّاعرُ المَكيُّ والحجازيُّ مولَعاً أَشدَّ الوَلعِ بِالحياةِ وزينَتِها وبَهجَتِها، لا يَرى فيها إِلَّا المتَعَ والمَلذَّاتِ واللَّهوَ، والتَّهافُتَ على مَجالِسِ النِّساءِ، ولقَدْ سَخَّرَ في سبيلِ ذَلِكَ كُلَّ موهِبَتِهِ وعَبقريَّتِهِ الشِّعريَّةِ، وكذَلِكَ أَيضاً جمالَهُ وشَبابَهُ، وكانَ ديدَنُهُ الحُصولَ عَلى متَعِ الحياةِ الماديَّةِ.

كما ازدَهرَ عَلى يديهِ شعرُ الغَزلِ، بَعدَ أَن اعتراهُ الضَّعفُ والفُتورُ عقِبَ ظهورِ الإِسلامِ، وانشغالِ النَّاسِ بِالبيانِ السَّماويِّ الخالدِ الَّذي أَبهرَ العقولَ، وأَخذَ بِالأَلبابِ بِإِعجازِهِ وبَلاغَتِهِ، فَانقَلبَ كثيرٌ مِنَ الشُّعراءِ عَنْ قولِ الشِّعرِ، وانشغلوا بِوحي السَّماءِ، كما لا يَخفَى كراهيَّةُ الإِسلامِ لِهذا النَّوعِ مِنَ الشِّعرِ السَّافِرِ الَّذي لا يَخلو مِنَ الوقوعِ في الآثامِ والمَحظوراتِ والمُحرَّماتِ.

فَجاءَ هذا الشَّاعرُ في غُضونِ تِلكَ الفترَةِ مِنَ الزَّمنِ، في أزهَى عصورِ الإِسلامِ، وأَكثرِها رَخاءً وثَراءً ومنعَةً، لِيُعيدَ إِلى شعرِ الغَزلِ، والتَّشبيبِ بِالمَرأَةِ ومحاسِنِها ومَفاتِنِها أَلقَهُ مِنْ جديدٍ، بَعدَ أَنْ مَضَى عليهِ حينٌ مِنَ الدَّهرِ لَمْ يَكُنْ مِنهُ في الشِّعرِ شَيئاً مَذكوراً. فَراحَتِ النِّساءُ يَقصُدنَهُ، ويَعتَرِضْنَ طريقَهُ حَتَّى يَصِفهُنَّ، ويُرضي غُرورَهُنَّ، ويُروي ظَمَأَهُنَّ إِلى سَماعِ مَنْ يَتَغزَّلُ بِهنَّ التَّغزُّلَ الحييَّ السِّتيرَ، الَّذي ليسَ فيهِ فُحش أَو تَفَحُّش في القَولِ، أَو في الوَصفِ.

ولَقَدْ رُويَتْ عَنْ هذا الشَّاعرِ الأُمورُ العِجابُ، حيثُ فَتَنَ بِشعرِهِ أَلبابَ النِّسوَةِ، وسَحرَ بِوَصفِهِ وتَغزُّلِهِ نُفوسَهُنَّ، حَتَّى الشَّريفات مِنهُنَّ مِمَّنْ كُنَّ يَتَمتَّعنَ بِمكانَةٍ ساميَةٍ في المُجتمعِ العربيِّ الإِسلاميِّ حينَها، والقاصِداتُ الحَجَّ في المَواسِمِ والمُناسِباتِ، فَكانَ في موسمِ الحَجِّ يَخرجُ ويَقفُ في طريقِ الحاجَّاتِ لِيَصِفَهُنَّ، ويَتَحدَّثَ إِليهنَّ، حَتَّى خافَ الأَعيانُ والأَشرافُ عَلى نِسائِهِمْ مِنهُ، ومِنْ فتنَتِهِ، ومِنْ شعرِهِ الغَزليِّ الَّذي كانَ موضَةً حديثَةً قياساً إِلى ذَلكَ العصرِ.

ورغمَ شَرفِهِ وعُلوِّ منزلَتِهِ بينَ قَومِهِ، فَإِنَّهُ لَمْ يَنشَغِلْ هذا الشَّاعرُ الشَّابُّ والظَّريفُ بِالسِّياسَةِ، في عصرٍ أَهمُّ ما يُميِّزُ الشُّعراءَ فيهِ ولاؤُهُمُ السِّياسيُّ وتَحزُّبُهُمْ، وانتماؤُهُمُ الطَّبَقيُّ والطائِفيُّ، لَكِنَّ هذا الشَّاعرَ وَقفَ في الجانبِ الآخرِ، بَعيداً عَنِ السِّياسَةِ والأَحزابِ، يُعاشِرُ الأُدباءَ والأَشرافَ، مُنشَغلاً بِنَظمِ الشِّعرِ، يَهتَمُّ أَوَّلاً وأَخيراً بِالمرأةِ، ولِهذا كانَ جديراً أَنْ يُسَمَّى بِـ «شاعرِ المرأَةِ».

فَهلْ عَرفتُمْ مَنْ يَكونُ هذا الشَّاعرُ؟

إِنَّهُ ـ بِلا شَكّ ـ «عُمرُ بنُ أَبي ربيعَةَ» الَّذي سارَتْ بِشعرِهِ الرُّكبانُ، وشَغلَ بِوصفِهِ الرِّجالَ والنِّساءَ.

فَتعالَوا معاً لِنَقرأَ سُطوراً مِنْ حياةِ هذا الشَّاعرِ المُجَدِّدِ.

❋ ❋ ❋

يرجعُ نَسبُ الشَّاعرِ «عُمرَ بنِ أبي ربيعةَ» إِلى بَني مَخزومٍ، وهُمْ بَطنٌ مِنْ قُريشٍ، وكانَ بَنو مَخزومٍ مِن أَمنَعِ بيوتاتِ قُريشٍ، ومِنْ أَعظَمِهِمْ ثَراءً وجاهاً ونُفوذاً في الجاهليَّةِ والإِسلامِ.

ولِدَ الشَّاعرُ «عُمرُ بنُ أَبي ربيعَةَ» في المَدينَةِ المُنوَّرةِ حاضرةِ الخِلافَةِ الإِسلاميَّةِ في العهدِ الرَّاشديِّ، وعاصمَةِ الدَّولَةِ الإِسلاميَّةِ الأُولَى الَّتي شَيَّدَ أَركانَها الرَّسولُ الكريمُ ﷺ، وكانَ مولدُ «عمرَ بنِ أَبي ربيعةَ» سَنةَ (644) ميلاديَّةً و(23) هجريَّةً، في بيتِ جاهٍ وعزٍّ وثراءٍ.

كانَ والدُهُ يُدعَى «بُجيراً المَخزوميَّ» مِنْ كبارِ تُجَّارِ المَدينةِ، ومِنْ أَعظَمِهِمْ ثراءً ونفوذاً وتِجارَةٍ ونُفوذاً، قَدْ عملَ والياً عَلى الجُندِ في اليَمنِ في عهدِ النَّبيِّ ﷺ، ثُمَّ في عهدِ الخُلفاءِ الرَّاشدينَ مِنْ بَعدِهِ، ورُبَّما اعتزَلَ هذِهِ الوظيفَةَ في بِدايَةِ العهدِ الأُمويِّ، وعملَ بِالتِّجارَةِ في المدينَةِ المُنوَّرةِ.

أَمَّا أُمُّ «عُمرَ بنِ أَبي ربيعةَ» فكانَتْ تُسَمَّى «مَجداً»، وأَصلُها حَضرَموتيَّةٌ حميريَّةٌ مِنْ بِلادِ اليَمنِ، ويُقالُ: إنَّها كانَتْ سَبيَّةً لأَبيهِ، فَأَعتَقَها أَبوهُ ثُمَّ تَزوَّجَها.

نشأَ الشَّاعرُ «عُمرُ بنِ أَبي ربيعَةَ» في بيتِ أَبيهِ نَشأَةَ الشُّرفاءِ والنُّبلاءِ والفُضلاءِ، ودرَجَ في أَحياءِ المدينَةِ المنوَّرَةِ بينَ أَبناءِ كبارِ الصَّحابَةِ والتَّابعينَ، ومِنَ الظَّاهرِ أَنَّهُ تأَثَّرَ بِالجوِّ العلميِّ الَّذي كانَ يَطغَى على المدينَةِ المنوَّرَةِ، وعَلى حياةِ أَبنائِها، ثُمَّ بعدَ كبَرِهِ ورثَ عَنْ أبيهِ أَموالَهُ وتجارَتَهُ وثراءَهُ، ولعلَ هذا ما جَعلَهُ يركنُ إِلى حياةِ اللَّهوِ والطَّيشِ والبَحثِ عنِ المتَعِ والمسرَّاتِ في الحياةِ.

وقَدْ قَضى شَبابَهُ الأَوَّلَ غارِقاً في مجالسِ السَّمرِ واللَّهوِ والغناءِ، وحَولَهُ الجواري والأَرقَّاءُ والعبيدُ والنُّدماءُ، مُحاطاً بِالخدمِ والحَشمِ، لا يُعكِّرُ صَفوَ حياتِهِ هَمٌّ ولا غَمٌّ، ولا شَيءٌ مِنَ المَتاعبِ أَو الآلامِ.

كما قَضى بَعضَ السِّنين مِنْ حياتِهِ مُتنَقِّلاً في المُدنِ والأصقَاعِ، في مجالسِ اللَّهوِ والطَّربِ، حتَّى ذاعَ صيتُهُ وانتشَرَ كَشاعرٍ غِنائيٍّ تُغَنَّى أَشعارُهُ وقَصائِدُهُ في مَجالسِ الطَّربِ

والمُفاكهَةِ المُنتشرَةِ في المُدنِ الإسلاميَّةِ الكُبرى، حَتَّى إنَّ العُشَّاقَ كانوا يَتناقلونَ ويَتراسلونَ أَشعارَهُ معَ مَعشوقاتِهِمْ ومَحبوباتِهِمْ.

لقَدْ كانَ أَحبُّ الأَيَّامِ إِلى هذا الشَّاعرِ الظَّريفِ والأَريبِ، هيَ أَيَّامُ مواسمِ الحَجِّ، حيثُ كانَ يَتَزيَّنُ بِأَحسنِ الثِّيابِ، ويَلبسُ أَبهَى الحلَلِ المُوَشاةِ بِالذَّهبِ والفِضَّةِ، ويَخرجُ مُتَعطِّراً، مُطيلاً إِزارَهُ، ثُمَّ يَنتقِلُ مِنْ طريقٍ إِلى آخرَ لِرؤيَةِ الحاجَّاتِ والتَّحدُّثِ إِليهِنَّ، ووَصفِهِنَّ، والتَّغزُّلِ بِمحاسِنهِنَّ، عَلى الرَّغمِ مِنْ مَظاهرِ الحياءِ والاحتشامِ الَّتي كانَتْ تَفرضُها طبيعَةُ الحياةِ الِاجتماعيَّةِ في ذَلكَ العصرِ.

ويُقالُ: إِنَّهُ ذاعَ صيتُ الشَّاعرِ بينَ النِّساءِ، وخَرجنَ يَطلُبْنَهُ، ويَتَهافَتْنَ عَلى لِقائِهِ حَتَّى يَصِفَهُنَّ، ويَمدحَ مَحاسِنَهُنَّ، وما كانَتِ الحياةُ الاجتماعيَّةُ بِقيودِها الصَّارِمَةِ لِتَمنَعَ النِّساءَ عَنْ قَصدِهِ، والحديثِ إِليهِ.

فَخافَ الأَشرافُ والنُّبلاءُ عَلَى نِسائِهِمْ، وتَتابَعَتِ الشَّكاوى عَليهِ في قُصورِ الحُكَّامِ والولاةِ والأُمراءِ والخُلفاءِ.

ولَقَدْ تَزوَّجَ «عُمرُ بنُ أَبي ربيعَةَ» بِامرأةٍ شَريفَةٍ مِنْ قَومِهِ تُدعَى «كَلثَمَ بنتَ سَعدٍ المَخزوميَّةَ»، وأَنجبَ مِنها ابناً اسمُهُ «جُوان».

❋ ❋ ❋

كانَ الشَّاعرُ «عُمرُ بنُ أَبي ربيعةَ» وَسيماً جميلاً، ظَريفَ اللِّسانِ، سَهلَ المُعاشرَةِ،

بَطيءَ الغَضبِ، مليحَ الدُّعابَةِ، لا يملُّ جليسُهُ، ولا يَكلُّ سامِعُهُ، يَتهافَتُ النَّاسُ عَلى مُجالَسَتِهِ، وسَماعِ حديثِهِ وشِعرِهِ.

وعُرِفَ بِبَذخِهِ الكَثيرِ عَلى مجالسِ اللَّهوِ والطَّربِ، وسَخَّر في سبيلِ ذَلكَ ثَروَتَهُ ومالَهُ، وقَدْ أَعيا الخُلفاءَ والأُمراءَ، وأَهلَ النِّساءِ وذَويهِنَّ.

ولَقدْ قَصرَ شعرَهُ عَلى الغزلِ، وعلى وَصفِ مفاتِنِ المرأَةِ ومَحاسِنِها وحديثِها واهتماماتِها ونَفسيَّتِها، وأَعرضَ عَنْ فُنونِ الشِّعرِ التَّقليديِّ أَيَّما إِعراضٍ. فلا يَقولُ الشِّعرَ إِلا في المرأَةِ والغزلِ فَقَطْ.

رَوى «أَبو الفَرجِ الأَصفهانيُّ» في كتابِهِ «الأَغاني»: أَنَّ الخليفَةَ الأُمويَّ «سُليمانَ بنَ عبدِ الملكِ»، طلبَ منهُ وسَأَلَهُ يَوماً:

ـ ما يَمنَعُكَ عَنْ مَدحِنا؟

فقالَ «عمرُ»: إِنِّي لا أَمدحُ الرِّجالَ، وأَمدحُ النِّساءَ.

ولقَدْ عَدَّ «الأَصفهانيُّ» عدداً كبيراً مِنَ النِّساءِ اللَّواتي مَدحَهُنَّ «عمرُ بنُ أبي ربيعَةَ» وشَبَّبَ بِهنَّ، وكُلُّهنَّ مِنْ نساءِ أشرافِ العربِ وفُضلائِهِمْ. ومِنهُنَّ زَوجَةُ شيخِ النُّحاةِ «أَبي الأَسودِ الدُّؤَليِّ» الَّتي كانتْ لَهُ مَعها ومعَ زوجِها ـ بِسَببِ ذَلِكَ ـ قِصَّةٌ طريفَةٌ.

ولَمْ يَكُنْ «عمرُ بنُ أبي ربيعَةَ» مُتَفَلِّتاً في شِعرِهِ عَنْ حدودِ الأَدبِ والحشمَةِ، ولَمْ يَستعمِلْ في شعرِهِ الغزليِّ الأَلفاظَ الَّتي تُثيرُ الغيرَةَ أَو الشَّهوَةَ كما كانَ يَفعلُ شُعراءُ

الجاهليَّةِ، وإِنَّما كانَ غَزلُهُ شَريفاً مُنْضَبِطاً مُلتَزماً بِقيَمِ المُجتمعِ الإِسلاميِّ ومبادئِهِ، ولَمْ يَخرُجْ يوماً عَنْ هذا الانضباطِ.

فَمثلاً كتبَ يوماً إِلى إِحدَى صاحباتِهِ رِسالَةً شعريَّةً فيها عتابٌ وشَكوَى، فيها شَيءٌ مِنْ أُسلوبِ القِصَّةِ والحوارِ، فقالَ:

كَتبْتُ إِليكِ مِنْ بلدي ... كتابَ مُولَهٍ كَمِدِ
يُؤرِّقُهُ لهيبُ الشَّوْ ... قِ بينَ السَّحرِ والكَبِدِ
فَيُمسِكُ قلبَهُ بيَدٍ ... ويَمسَحُ عينَهُ بِيدِ

بَلْ كانَ في بَعضِ الأَحيانِ يَمدحُ المرأَةَ أَو الفَتاةَ مُكتَفياً بِذكرِ نَسَبِها وحسَبِها الشَّريفِ، فَكتبَ يَمدَحُ إِحداهُنَّ يوماً:

وطافَتْ بِنا شَمسٌ في العشاءِ ومَنْ رأَى ... مِنَ النَّاسِ شَمساً في العشاءِ تَطوفُ
أَبو أُمِّها أَوفَى قُريشٍ بِذِمَّةٍ ... وأَعمامُها إِمَّا نَسَبْتَ ثَقيفُ

وكثيراً ما كانَ يُصَوِّرُ في شعرِهِ حياةَ المرأَةِ العربيَّةِ بِأُسلوبٍ حواريٍّ يَدورُ عَلى أَلسنَةِ النِّساءِ، ويَتغزَّلنَ بِهِ أَكثرَ مِمَّا يَتغزَّلُ بِهِنَّ بِأَلفاظٍ وعباراتٍ ليسَ فيها فحشٌ أَو خروجٌ عَنِ الحشمَةِ، كما في قَصيدَتِهِ الشَّهيرَةِ «وهَلْ يَخفَى القَمرُ»، فقالَ:

بينَما يَنْعَتْنَني أَبصَرنَني ... دونَ قيدِ الميلِ يَعدُ بي الأَغر[1]

(1) الأَغر: مِنَ الخيل ما كان له غرّة، أي: بياضٌ في جَبهَته.

قالتِ الكُبرَى: أَتعرفنَ الفَتَى؟ قالتِ الوسطَى: نَعَمْ، هذا عُمَرْ
قالَتِ الصُّغرَى، وقَدْ تَيَّمتُها: قَدْ عرفناهُ، وهلْ يَخفَى القَمرْ؟!

وفي أَحيانٍ أُخرى يَأتي غَزلُهُ عَلى شَكلِ الصَّبابَةِ، حيثُ العاشِقُ أَضناهُ الشَّوقُ، وتَحمَّلَ العذابَ والضَّنك مِنْ طولِ الهَمِّ والسُّهادِ على بُعدِ الحبيبِ، فَيقولُ:

مَنْ رسولٌ ناصِحٌ يُخبرُنا عَنْ مُحبٍّ مُستهامٍ قَدْ كَتَمْ
حُبَّهُ حَتَّى تَبَلَّى جسمُهُ وبراهُ طولُ أَحزانٍ وهَمّ

وهكذا نلاحِظُ، أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ في شِعرِهِ وغَزلِهِ ما فيهِ مِنَ الوصفِ المُحرَّمِ لِمفاتِنِ المرأَةِ، أَو يَخرجُ عنْ حدودِ العِفَّةِ والأَدبِ.

❋ ❋ ❋

انتشَرَ شعرُ «عُمرَ بنِ أَبي ربيعةَ» انتشاراً واسِعاً بينَ أَبناءِ الطَّبقَةِ المُترَفَةِ، وتناقَلَهُ الشُّبانُ والفَتياتُ، وغَنَّتْهُ النِّساءُ المُولهاتُ بِالعشقِ والصَّبابَةِ وهُنَّ في خُدورِهِنَّ ويَحلُمْنَ أَنْ يُقالَ فيهِنَّ شعراً يَصفُ أُنوثَتَهُنَّ وجمالَهُنَّ. كما أَنَّ المُغَنينَ قَدْ أُولِعوا بِشعرِهِ وَلعاً عظيماً وغَنوهُ في قُصورِ الخُلفاءِ والولاةِ والأُمراءِ، وفي الولائِمِ والأَعراسِ والمُناسباتِ إِنشاداً وتَلحيناً، بَلْ، كما قيلَ:

«أولعَ بِهِ الشَّعبُ كُلُّهُ، وصارَتْ لِشَخصيَّةِ «عُمَرَ بنِ أبي ربيعَةَ» قيمَةٌ وشهرَةٌ شَعبيَّةٌ»، أَو كما يُقالُ في أقيسَةِ العصرِ الحديثِ، صارَ شعرُهُ فُلكلوراً شَعبيّاً استَحسَنَهُ عامَّةُ الشَّعبِ، وأَصبَحَ ظاهرَةً اجتماعيَّةً وثَقافيَّةً مُتداخِلَةً معَ أَعرافِ المُجتَمعِ وتقاليدِهِ.

لَكِنْ، ظَهرَ لَهُ حُسَّادُهُ وأَعداؤُهُ الَّذينَ كانوا يُهاجمونَهُ، ويَعتبرونَ شعرَهُ خطراً عَلى النِّساءِ، وخطراً عَلى العِفَّةِ والأَدبِ والحياءِ، حَتَّى قالَ أَحدُ الأَنصارِ في شعرِهِ: «ما عُصيَ اللهُ بِشَيءٍ كما عُصيَ بِشعرِ «عُمرَ بنِ أبي ربيعَةَ»».

وقَدْ أَجمَعَ الأُدباءُ والشُّعراءُ في مُختلفِ العصورِ عَلى أَنَّ «عمرَ بنَ أَبي ربيعةَ» أَشعرُ الشُّعراءِ في الغزلِ، وما أَقَرَّتِ العربُ لِقُريشٍ بِالشِّعرِ إِلَّا معَ «عُمرَ بنِ أَبي ربيعَةَ».

هذا، ويُقالُ: أَنَّ «عُمرَ بنَ أَبي ربيعَةَ» تابَ في آخرِ عُمرِهِ عَنِ اللَّهوِ والعبَثِ، وعَنْ نَظمِ شعرِ الغَزلِ، ويُروَى في هذا الصَّدَدِ: أَنَّهُ لَمَّا أَسَنَّ تابَ ونَذَرَ للهِ تَعالَى أَنْ يَعتقَ رقبَةً مُؤمنَةً عَنْ كُلِّ بيتٍ مِنَ الشِّعرِ يَقولُهُ، فَكانَ لا يَنطقُ بيتاً مِنَ الشِّعرِ بَعدَها إِلَّا أَعتَقَ عبداً أَو جاريَةً.

أَمَّا عَنْ وفاتِهِ، فَإِنَّهُ يُحيطُ بِها الغُموضُ، حيثُ تَعدَّدَتِ الرِّواياتُ في ذَلِكَ، فَمنهُمْ مَنْ يَقولُ: إِنَّ الخليفَةَ الأُمويَّ «عُمرَ بنَ عبدِ العزيزِ» نَفاهُ إِلَى جزيرَةِ «دهلك» الواقعَةِ في البَحرِ الأَحمرِ، فَغزا في البَحرِ فَأُحرقَتْ سَفينَتُهُ بِمَنْ فيها، فَماتَ غَرقاً واختناقاً.

ومِنهُمْ مَنْ يَقولُ: إِنَّهُ ذَهبَ إِلى اليَمنِ، فَمرضَ وماتَ فيها سنةَ (711) ميلاديَّةً، و(93) هجريَّةً.

وقَدْ خلَّدَ لنا التَّاريخُ مِنْ شِعرِهِ ديواناً كبيراً يحوي مجموعةً مِنَ القصائِدِ تَضُمُّ عدَّةَ آلافٍ مِنْ أَبياتِ الشِّعرِ في الغَزلِ والوصفِ والفخرِ.

وفي أُخرياتِ حياتِهِ قالَ قَصيدتَهُ الرَّائِعةَ «قَدْ هاجَ قَلبُكَ»:

قَدْ هاجَ قَلبُكَ بعدَ السُّلوةِ الوطن والشَّوقُ يُحدِّثُهُ لِلنَّازحِ الشَّجنُ
مَنْ كانَ يَسأَلُ عنّا أَينَ مَنزلُنا؟ فَالأَقحوانَةُ منَّا منزلٌ قَمنُ
وما لِدارٍ عَفَّتْ بعدَ ساكنِها وما لِعَيشٍ فيها إِذ ذاكُم ثَمنُ
إِذْ نلبَسُ العيشَ صفواً لا يُكدِّرُه جَفوُ الوشاةِ ولا يَنبو بِنا زَمنُ
إِذا اجتَمَعنا هجرْنا كُلَّ فاحشَةٍ عندَ اللِّقاءِ وذاكُمْ مجلسٌ حسَنُ
فَذاكَ دهرٌ قَضَتْ عنَّا ضَلالَتُهُ وكُلُّ دهرٍ لَهُ في سَيرِهِ سنَنُ
ليتَ الهَوى لَمْ يُقَرِّبْني إِليكِ ولَمْ أَعرفْكِ إِذْ كانَ حَظي مِنكُمُ الحَزنُ

ومِنَ الأَشعارِ الَّتي ذَهبَتْ مذهَبَ الأَمثالِ بينَ أَهلِ العشقِ والصَّبابَةِ، قَولُهُ:

إِذا طَلعَتْ شَمسُ النَّهارِ ذَكرتُها وأُحدثُ ذكراها إِذا الشَّمسُ تَغربُ

وقَولُهُ:

إِذا خَدرتْ رِجلي أَبوحُ بِذكرِها لِيَذهبَ عَنْ رجلي الخُدورُ فَيذهبُ

الأَسْئِلَةُ وَالْمُنَاقَشَةُ

1 ـ بِماذا كانَ عمرُ بنُ أبي ربيعةَ مولعاً؟

2 ـ لِماذا شعرُ الغزلِ اعتراهُ الضعفُ والفتورُ بعدَ ظهورِ الإِسلامِ؟

3 ـ إِلَى مَنْ يرجعُ نسبُ عمرَ بنِ أبي ربيعةَ؟

4 ـ أَينَ ولدَ عمرُ بنُ أبي ربيعةَ، وبِماذا تأَثَّرَ؟

5 ـ كيفَ قَضَى عمرُ بنُ أبي ربيعةَ شبابَهُ الأَوَّلَ؟

6 ـ ما هيَ أَهمُّ صفاتِ الشاعرِ عمرَ بنِ أبي ربيعةَ؟

7 ـ هَلْ كانَ عمرُ بنُ أبي ربيعةَ مُتفَلِّتاً في شعرِهِ؟ وضِّحْ ذلكَ.

8 ـ كيفَ صوَّرَ عمرُ بنُ أبي ربيعةَ حياءَ المرأةِ العربيَّةِ؟

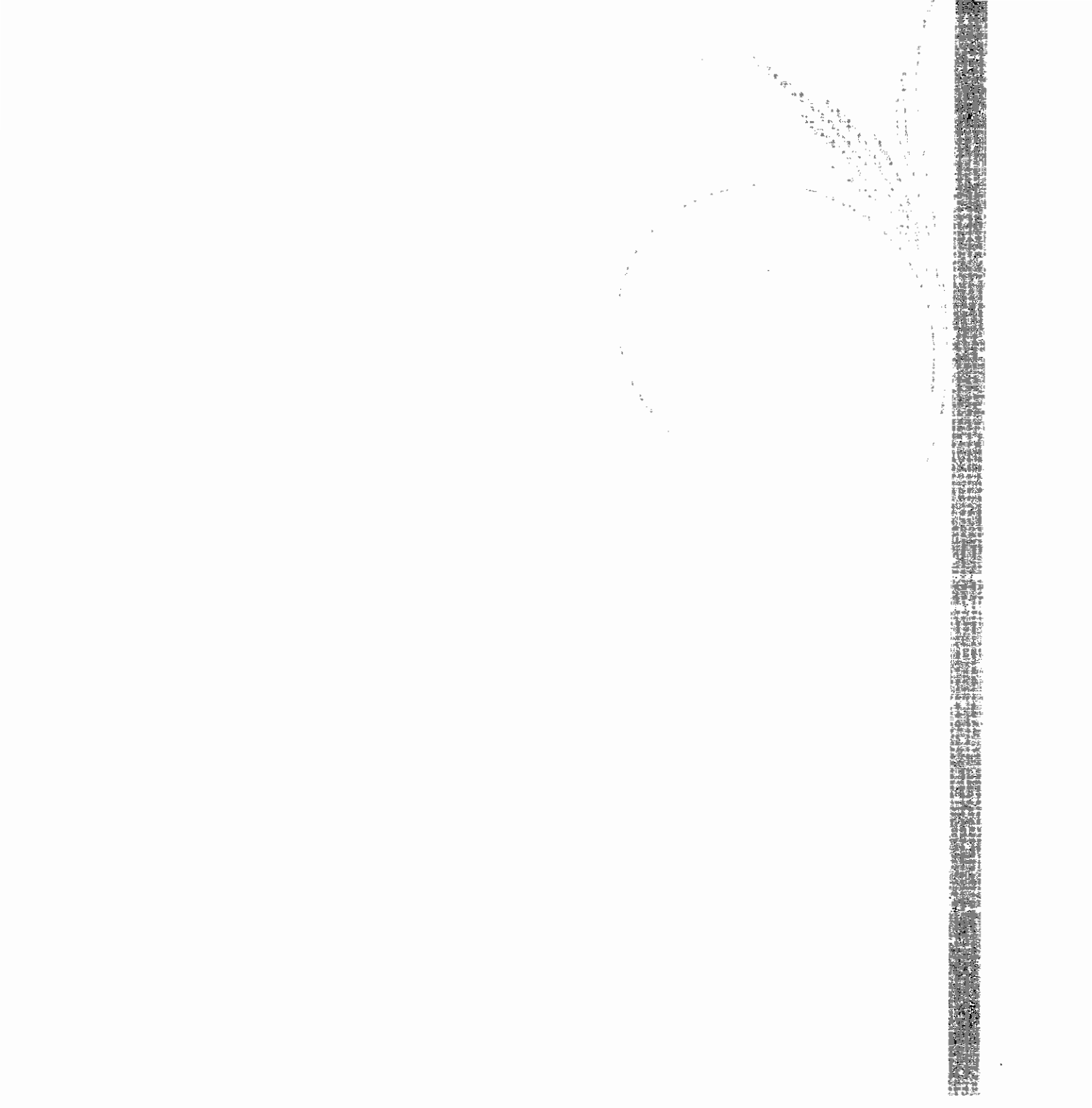

أَبُو العَتَاهِيَةِ
سَاعِرُ الزُّهْدِ
(748 ـ 825م)

الحَمدُ للهِ رَبِّ العالمينَ، والصَّلاةُ والسَّلامُ عَلى سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ سَيِّدِ الأَنْبياءِ والمُرسلينَ، وبَعد:

أَعِزَّائي:

سَنَقرأُ في هَذِهِ الصَّفحاتِ اليَسيرَةِ قِصَّة شاعرٍ عربيٍّ ملأَ شعرُهُ أَسماعَ الخُلفاءِ، وطافَتْ قَصائِدُهُ وجالَتْ في قُصورِهِمْ وفي مجالِسِهِمْ وفي حدائِقِهِمُ الغَنَّاءِ.

ويُمثِّلُ هذا الشَّاعرُ في تاريخِ الشِّعرِ العربيِّ، مرحلَةً جديدَةً طَرَأَتْ في مسيرَةِ الشِّعرِ العربيِّ في العصرِ العباسيِّ، حيثُ تَنوَّعَتْ على يَديهِ أَغراضُ الشِّعرِ، ولَمْ تَعُدْ تقتَصرُ عَلى المديحِ والفَخرِ والرِّثاءِ والغَزلِ، وإِنَّما نَشأَتْ أَلوانٌ وأَغراضٌ جديدةٌ في شعرٍ يَطلبُ مِنَ النَّاسِ في الحياةِ العودَةَ إِلَى فَضاءِ الرُّوحِ، وعالمِ الأَخلاقِ والقيَمِ والمبادئِ الإِنسانيَّةِ المُثلَى، في مُجتمعٍ يَعجُّ بِالتَّرفِ والأَهواءِ والشَّهواتِ.

لَقَدْ كانَتْ قَصائِدُ هذا الشَّاعِرِ وأَلحانُهُ الشِّعريَّةُ، نَفحاتٍ روحيَّةً تَفيضُ بِالعاطفةِ الرَّقيقَةِ

الباحثَةِ عَنْ عالمٍ أَفضلَ وسطَ ظلامٍ دامسٍ مَليءٍ بِالأَحداثِ الَّتِي صَبغَتِ الحياةَ بِطابَعٍ ماديٍّ مُترَفٍ عزفَتْ فيهِ النُّفوسُ عَنِ التَّطلُّعِ نَحوَ السَّماءِ، وجَفَّتْ فيهِ يَنابيعُ الحياةِ الرُّوحيَّةِ الَّتِي تَرنو إِلَى عالمِ الخُلودِ فيما وراءَ هَذِهِ الحياةِ الدُّنيا.

لَقَدْ كانَ هذا الشَّاعرُ الَّذي نحنُ بِصَدَدِ الحديثِ عنهُ، أَوَّلَ شعراءِ الزُّهدِ الَّذِيْن وطئوا بِلاطَ الخُلفاءِ ومجالِسَهُمْ وقُصورَهُمْ، يُذَكِّرونَ بِالآخرَةِ، ويُزكُّونَ بِشعرِهِمْ عالَمَ الرُّوحِ المُتسامي عَلى عالَمِ المادَّةِ الأَرضيِّ، ويُعلونَ مِنْ صَرحِ القيمِ والمَبادئ الرُّوحيَّةِ والخُلقيَّةِ في وقتٍ كانَ فيهِ المُجتمعُ العربيُّ والإِسلاميُّ أَحوَجَ ما يَكونُ إِليها.

أَجَل، لَقَدْ كَانتْ أَشعارُ هذا الشَّاعرِ سَبَحاتٍ نورانيَّةً أَضاءَتْ كَالنُّجومِ الهادياتِ في أَروقَةِ الخُلفاءِ، بَعدَ أَنْ خَلَتْ مجالِسُ الحُكَّامِ مِنْ هكذا شُعراءَ وحُكماءَ بَعدَ انقضاءِ العهدِ الرَّاشديِّ.

فَكانَ لِترنيماتِه الشِّعريَّةِ انعكاسُها الخاصُّ والشَّفَّافُ في الأَذهانِ والعقولِ، وأَثرُها الواضح في تَزكيَةِ النُّفوسِ وتَطلُّعِها نَحوَ آفاقِ الطُّهرِ والعفافِ.

فَهلْ عرفتُمْ مَنْ يَكونُ هذا الشَّاعرُ؟

إِنَّهُ «أَبو العتَاهيةِ»، شاعرُ الزُّهدِ، هذا الَّذي شَقَّ الطَّريقَ أَمامَ السَّالكينَ إِلى اللهِ مِمَّنْ أَتى بَعدهُ مِنْ كبارِ شُعراءِ التَّصوُّفِ والزُّهدِ.

فَما هيَ أَهمُّ أَحداثِ حياةِ هذا الشَّاعرِ الزَّاهدِ؟

هذا ما سَنعرفُهُ عبرَ هذهِ الصَّفحاتِ.

❋ ❋ ❋

كانَ أَبو العتاهيةِ رَجلاً مَغمورَ النَّسبِ، حيثُ اختلَفَ المؤرخونَ في نَسبِه وأَصلِهِ، فَمنْهُمْ مَنِ اعتبَرَهُ عربيّاً، ومِنهُمْ مَنْ عَدَّهُ أَعجميّاً مِنَ الموالي الَّذِيْن تَدَفَّقوا إِلى بِلادِ العربِ عقبَ الفتوحِ الإِسلاميَّةِ.

فَالَّذِيْن اعتبروهُ عربيّاً، قالوا: إِنَّهُ مِنْ بَني عُنيزةَ الَّذِيْن سَكنوا منطقَةَ الأَنبارِ في العراقِ.

والَّذِيْن اعتبروهُ غيرَ عربيٍّ، قالوا: إِنَّهُ يَنتسِبُ إِلى بَني عُنيزَةَ بِالولاءِ فَقَط، وإِنَّ في نَسبِهِ اضطرابٌ، فَأَحدُ أَجدادِهِ كانَ أَعجميّاً ومَولىً لِبني عُنيزةَ.

ومَهما يَكُنْ مِنْ أَمرٍ، فَإِنَّ أَبا العتاهيَةِ كانَ عَربيَّ اللِّسانِ، عربيَّ المَنشأ، عربيَّ الولاءِ، عربيَّ السَّجايا والصِّفاتِ، هذا لو افترضْنا أَنَّهُ غيرُ عربيٍّ، لَكِنْ ليسَ هُناكَ ما يَقطعُ قَطعاً جازماً أَنَّهُ غيرُ عَربيٍّ، والرَّاجحُ أَنَّهُ عَربيُّ النَّسبِ والأَصلِ.

واسمُ أَبي العتاهيَةِ «إِسماعيلُ بنُ القاسمِ بنِ كيسانَ»، ويُكَنَّى بِـ «أَبي إِسحاقَ».

ولِدَ «أَبو العتاهيَةِ» في منطقَةِ الأَنبارِ مِنْ بلادِ العراقِ سنَةَ (748) ميلاديَّةً الموافقَة (130) هجريَّةً، في قَريَةِ «عينِ التَّمرِ» لأَبٍ فقيرِ الحالِ، كانَ يَعمَلُ حَجَّاماً، فَاضطَّر «أَبو العتاهيَةِ» منذُ كانَ صَغيراً أَنْ يَنتقِلَ معَ أَخيهِ الَّذي يَكبرُهُ سِنّاً إِلى مَدينَةِ «الكوفَةِ»، ومُزاولَةِ عملٍ يَتَكَسَّبانِ بِهِ هُناكَ، فَعملا في بيعِ الفخَّارِ.

كانَتْ مَدينَةُ «الكوفَةِ» في ذَلكَ العصرِ إِحدَى كُبرياتِ المُدنِ العربيَّةِ والإِسلاميَّةِ، عُرفَتْ بِعُلمائِها وشُعرائِها وفلاسِفَتِها ومُحدِّثيها، وبِالحركاتِ والمذاهبِ الفكريَّةِ والدِّينيَّةِ

والسِّياسيَّةِ الَّتِي كانَتْ تَحتَضنُها، وكذلِكَ بِمساجِدِها ومدارسِها ومَكتباتِها الَّتِي أَنشَأَها كبارُ العُلماءِ والفُقهاءِ.

إِلى جانبِ ذَلِكَ، كانَتْ مَظاهرُ حياةِ التَّرفِ والنَّعيمِ تَبدو كَسمَةٍ مِنْ سِماتِها، فانتَشَرَتْ في ضَواحيها، وفي غمارِ بَعضِ أَحيائِها حاناتُ اللَّهوِ والرَّقصِ والغِناءِ والمُجونِ والشَّرابِ الَّتِي تَعجُّ بِالمُغنينَ والجَواري والقيناتِ.

وفي خِضَمِّ هذِهِ الأَجواءِ المُتنوِّعَةِ، تَفَتَّحَتْ مَدارِكُ «أَبي العتاهيَةِ»، ونَضَجَتْ آفاقُ عقلِهِ، لَكنَّهُ في بَعضِ الأَحيانِ، كانَ يميلُ إِلَى مَجالسِ الشُّعراءِ والأُدباءِ والظُّرفاءِ ـ وما كانَ أَكثرُها في ذَلِكَ الحينِ ـ الَّتِي كانَتْ تُعقَدُ في غُضونِ هَذِهِ الأَجواءِ الصَّاخبَةِ، فَكانَ يَسمَعُ إِليهِمْ، ويَعي ما يَقولونَ، ويَحفَظُ مِنْ أَشعارِهِمْ، حتَّى اكتشَفَ في نفسِهِ مَقدرَةً عاليةً، وموهبَةً فَذَّةً عَلى قَرضِ الشِّعرِ، ومُزاوَلَةِ الأَدبِ وفُنونِ اللُّغةِ.

غيرَ أَنَّهُ وجَدَ أن مدينَةَ «الكوفَةِ» لا تُلَبِّي طُموحَهُ وتَطلُّعَهُ نَحوَ عالمِ الشِّعرِ والأَدبِ، فَيَمَّمَ وجهَهُ شَطرَ مدينَةِ «بغدادَ» عاصمَةِ الخلافَةِ، ومَوطنِ العلمِ والأَدبِ والحكمةِ والشِّعرِ في ذَلكَ الوقتِ.

❋ ❋ ❋

كانَتْ مَدينَةُ «بغدادَ» عندَما وَصلَها «أَبو العتاهيَةِ» قادماً مِنَ «الكوفَةِ» تَعجُّ بِالعلماءِ والشُّعراءِ والأُدباءِ والحُكماءِ، وكانَتْ سَيِّدةَ مُدنِ الأَرضِ قاطبَةً، تُجبَى إِليها خيراتُ كُلِّ

شَيءٍ، وتخرجُ منها يَنابيعُ العلمِ والفكرِ والأَدبِ، كَما كانَتْ مَوئِلَ الباحثينَ عَنْ حياةِ اللَّهوِ والتَّرفِ. وذَلِكَ بِسَبَبِ تَوفُّرِ كُلِّ أَسبابِ التَّرفِ والرَّخاءِ فيها.

فَعكفَ «أَبو العتاهيَةِ» منذُ أَوَّلِ وصولِهِ إِلَى «بَغدادَ» عَلَى التَّردُّدِ إِلى أَمكنَةِ اللَّهوِ والتَّرفِ والطَّربِ، حيثُ كانَ بَعضُ الظُّرفاءِ مِنْ أَربابِ الشِّعرِ والأَدبِ يُلقونَ أَراجيزَهُمْ وأَناشيدَهُم الشِّعريَّةَ فيها، فَيُرَدِّدُها المُغنونَ والقيناتُ غناءً ولَحناً.

وخلالَ فترَةٍ قَصيرَةٍ مِنَ الزَّمَنِ، اشتُهرَ «أَبو العتاهيَةِ»، وشاعَ صيتُهُ هُناكَ كَشاعرٍ يَرتَجزُ أَحلَى وأَطربَ قصائدِ الحبِّ والغَزلِ، ومِمَّا ساعدَ على انتشارِ شعرِهِ عِشقُهُ لِجاريَةٍ اسمُها «عُتبَة».

لقَدْ شُغفَ «أَبو العتاهيَةِ» حُبّاً بِهذِهِ الجاريَةِ، وراحَ ينشدُ لَها أَجملَ الأَشعارِ والقصائدِ، مُتَغزِّلاً بِفتنَتِها وجَمالِها، مُتَودِّداً قُربَها ووصالَها، فَتناقَلَتِ الأَلسِنَةُ أَشعارَهُ فيها، واستَحسَنَ النَّاسُ أَلحانَ شعرِهِ الرَّقيقِ الَّذي يَملأُ العاطفةَ والوجدانَ طَرباً وسحراً، ومِمَّا قالَهُ في مَحبوبَتِهِ «عُتبَةَ»:

ولَقَدْ طربتُ إِليكِ حتَّى صرتُ مِنْ أَلمِ التَّصابي
يَجدُ الجليسُ إِذا دَنا ريحَ الصَّبا مِنْ ثيابي

وصلَ صيتُ «أَبي العتاهيَةِ» إِلى بلاطِ الخليفَةِ العبَّاسيِّ «المهديِّ» واستَحسَنَ الخليفَةُ شِعرَهُ، لِما وَجدَ فيهِ مِنْ رِقَّةِ العاطفَةِ، وصدقِ الوجدانِ، ما يَجعَلُهُ موضعَ الثِّقَةِ والاحترامِ، فَقَرَّبَهُ الخليفَةُ إِليهِ، حتَّى غَدا جليسَ خَلواتِهِ، ورفيقَ نُزُهاتِهِ، وقامَ «أَبو العتاهيَةِ» بِمدحِ الخليفَةِ مَدحاً جَعلَهُ يَنالُ مِنهُ أَثمَنَ العَطايا والهدايا.

ومِمَّا زادَ «أَبا العتاهيَةِ» قُرباً مِنَ الخليفَةِ، ومُداومَةَ الإِقامَةِ في بلاطِهِ، أَنَّ مَحبوبَتَهُ «عُتبَةَ» أَصبَحتْ مِنْ جَواري الخليفَةِ، وتُقيمُ في قَصرِ الخلافَةِ. لَكِنَّ «أَبا العتَاهيَةِ» لَمْ يَلقَ مِنها إِلَّا كُلَّ صُدودٍ وهُجرانٍ، حَتَّى أَضواهُ حُبُّهُ لَها، وأَذابَ جِسمَهُ نُفورُها مِنهُ، فَقالَ مُصَوِّراً ذَلكَ:

أذابَ الهَوى جسمي وعظمي وقُوَّتي فَلَمْ يَبقَ إِلَّا الرُّوحُ والبَدنُ النَّضو

ورُبَّما هذا الصُّدودُ والنُّفورُ الَّذي لاقاهُ «أَبو العتاهيَةِ» مِنْ مَحبوبَتِهِ «عُتبَةَ» كانَ السَّببَ في زُهدِهِ، ورُجوعِهِ عَنْ حياةِ اللَّهوِ والعَبثِ.

❋ ❋ ❋

بعدَ هذا الانقلابِ في حياةِ «أَبي العتاهيَةِ»، حيثُ صارَ زاهداً بِالدُّنيا، لا يَرجو مِنها لَذَّةً، ولا يَرغبُ فيها بِمطمَعٍ أَو نوالٍ، عكفَ عَلى المُطالعَةِ، وعلى دراسَةِ المَذاهبِ الفكريَّةِ والدِّينيَّةِ، وتَأَثَّرَ في البِدايَةِ بِمذهَبِ الشِّيعةِ، وبِطريقَةِ أَهلِ الزُّهدِ والتَّصوُّفِ، ثُمَّ صارَ يَنتقلُ مِنْ مذهبٍ إِلى آخرَ، حتَّى كَوَّنَ لِنفسِهِ ثقافَةً وفلسفَةً خاصَّةً أَدَّتْ بِهِ إِلى الزُّهدِ والتَّصوفِ ومُداومَةِ العبادةِ قولاً وفعلاً ومعاشاً.

ولَكِنَّ حالَ الزُّهدِ الَّتِي وصَلَ إِليها «أبو العتاهيَةِ» لَمْ تَمنَعهُ مِنْ مواصلَةِ مدحِ الخلفاءِ العباسيينَ، والتَّقرُّبِ إِليهِمْ، واستجداءِ عَطاياهُمْ، كما أَنَّ الخُلفاءَ مَدحوا منهُ هذا الزُّهدَ، وأغدقوا عليهِ بِالمِنَحِ والهدايا، حَتَّى إِنَّ الخليفَةَ «هارونَ الرَّشيدَ» ـ معَ ما عُرفَ بِهِ مِنْ شُحٍّ

عَلى الشُّعراءِ والمدَّاحينَ ـ جَعلَ لَهُ مَعاشاً قَدرُهُ خَمسونَ أَلفَ درهمٍ، إِلى جانبِ الهَدايا الَّتِي يَهبُها لَهُ في المُناسباتِ والأَعيادِ.

ورغمَ هذِهِ الرِّعايَةِ الَّتِي أَحاطَهُ بها خلفاءُ بني العبَّاسِ، إِلَّا أَنَّهُ في بعضِ الأَحيانِ كانَ يُلاقي مِنهُمُ الجَفوَةَ والغِلظَةَ والنَّكيرَ، ففي إِحدَى المرَّاتِ طلبَ منهُ الخليفةُ «هارونُ الرَّشيد» أَنْ يَرتَجزَ شِعراً في غيرِ موضوعِ الزُّهدِ وأَغراضِهِ، فَرفَضَ «أَبو العَتاهيَةِ» ذَلكَ، فَحبَسَهُ الخليفَةُ عدَّةَ أَيّامٍ، ثُمَّ أَطلقَ سَراحَهُ.

ولَمَّا تَولَّى «المَأمونُ» الخلافَةَ، قَرَّبَ إِليهِ «أَبا العتاهيَةِ» لِما عرفَ عنهُ مِنْ إِخلاصِهِ الشَّديدِ لِبَني العبَّاسِ، وجعلَهُ مِنْ بِطانَتِهِ الخاصَّةِ، فكانَ يَسرُّ إِليهِ ما يَجدُهُ في نَفسِهِ مِنْ أَحزانٍ وهُمومٍ وأَشجانٍ.

كما ظَلَّ «أبو العتاهيَةِ» طوالَ خِلافَةِ أَبناءِ «الرَّشيدِ» عَلى حالِهِ، مُقرَّباً لديهِمْ، مَحبوباً مِنْ قِبَلِهِمْ، يَحظَى مِنهُمْ بِكُلِّ احترامٍ وتَقديرٍ، حَتَّى وفاتِهِ.

عِلماً أَنَّ «أَبا العتاهيَةِ» كانَ يُبطنُ قي قلبِهِ حُبَّهُ وولاءَهُ الشَّديدَ لآلِ البيتِ، ويَطوي بينَ جوانِحِهِ عقيدَةَ الشِّيعَةِ كما قيلَ عَنهُ، إِلَّا أَنَّهُ كان لا يدعُ للسياسة أن تَتَدَخَّلَ في عواطِفِهِ وعلاقاتِهِ، لأَنَّ الخُلفاءَ العباسيِّينَ كانوا يُنكِّلونَ بِآلِ البيتِ وبِمَنْ والاهُمْ كما هوَ ثابِتٌ ومَعروفٌ. فَالزُّهدُ بِالدُّنيا، والتَّفرُّغُ لِلعبادَةِ، كانَ عُنوانَ حياتِهِ حَتَّى مَماتِهِ.

❋ ❋ ❋

لَمْ يَكُنْ «أَبو العتاهيَةِ» صاحبَ نَظرَةٍ عميقَةٍ في الزُّهدِ والتَّصوُّفِ، ولَمْ يَكُنْ كَذلِكَ

صاحبَ مَذهبٍ أَو مَدرسَةٍ فيهِ، وإِنَّما كانَتْ رُؤيَتُهُ ونَظرَتُهُ لِذَلكَ، هي رؤيَةُ ونَظرَةُ الشَّاعرِ والأَديبِ والفَنَّانِ، فَراحَ يَتلَمَّسُ طريقَ الآخرَةِ بِوجدانِهِ وشعرِهِ، وبِإِحساسِهِ العَميقِ لِما وراءَ هَذِهِ الحياةِ الدُّنيا، بَعدَما أَدرَكَ عَدمَ جَدوَى المتَعِ والمَلذَّاتِ في تَحقيقِ السَّعادَةِ الحقيقيَّةِ.

كانَ زُهدُهُ وتَصوُّفُهُ نابِعاً مِمَّا يُمليهِ عليهِ شُعورُهُ ووجدانُهُ وإِحساسُهُ، وكانَتْ تَجربَتُهُ في عالمِ الزُّهدِ والتَّصوُّفِ، تجربَةً روحيَّةً ونَفسيَّةً مَحضةً، تَمخَّضتْ عَنها حياتُهُ في وَقتٍ كانَ يَشعرُ فيهِ بِالأَلمِ واللَّذَةِ، الرُّوحيين والماديِّين في الدُّنيا والآخرَةِ عَلى السَّواءِ.

غَلبَ في نَفسِ «أبي العتاهيَةِ» الإِحساسُ بِالآخرَةِ ونعيمِها الخالدِ، عَلى الإِحساسِ بِالدُّنيا ونَعيمِها الزَّائِلِ، فَغرَقَ في نورٍ دائِمٍ مِنْ سَبحاتِ الزُّهدِ والتَّصوُّفِ، وما كانَ يَوماً لِيَرضَى الابتعادَ عَنْ تِلكَ الأَنوارِ القُدسيَّةِ، أَو يَحرم نَفسَهُ تِلكَ اللَّذَّةَ الرُّوحيَّةَ العارمَةَ والهائِمَةَ في فَضاءِ شُعورِهِ وإِحساسِهِ.

أَجل، كانَ الزُّهدُ والتَّصوُّفُ في حياةِ «أَبي العتاهيَةِ» شُعوراً عاطفياً، ومُيولاً نَفسياً مُدَعَّماً بِإِحساسٍ لا يَخبو، ولا يَتوقَّفُ عَنِ الهيامِ الرُّوحي في العَوالمِ العلويَةِ، وفي الذَّاتِ الإِلهيَّةِ المُتَفرِّدَةِ في الوجودِ الأَزليِّ، ولَمْ يَكُنِ الزُّهدُ والتَّصوُّفُ في حياتِهِ اتِّجاهاً فكريّاً، أَو مذهباً فَلسفيّاً عَلى غِرارِ أَربابِ الزُّهدِ والتَّصوُّفِ مِنْ كبارِ العُلماءِ والزُّهادِ.

ورُبَّما هذا الفَهمُ يَجعلُنا نُدحضُ كُلَّ الشُّبهاتِ والاتِّهاماتِ الَّتِي لاحَقَتْ حياةَ هذا الشَّاعرِ الزَّاهدِ مهما كانَ شَأنُ قائِلها أَو مَكانَتُهُ العلميَّةُ والدِّينيَّةُ والأَدبيَّةُ.

لَقَدْ وصِفَ «أَبو العَتاهيَّةِ» مِنْ قِبَلِ بَعضِ المُؤرِّخينَ، أَنَّهُ كانَ يَتَصَنَّعُ بِلبسِ مُسوحِ

الرُّهبانِ، ويَتظاهرُ بِالزُّهدِ والتَّصوُّفِ لِينالَ الحظوَةَ منَ الخُلفاءِ، ولِيُروي ظَمأَهُ الطَّامحَ والطَّامعَ لِلغِنَى والثَّراءِ، وعَلَى افتراضِ ذَلِكَ نَقولُ:

كيفَ لِشاعرٍ هَذا دأْبُهُ واهتمامُهُ، أَنْ يَأتي بِمثلِ هذا الشِّعرِ المُحلِّقِ في عالمِ الزُّهدِ، والمُتَطلِّعِ نَحوَ النَّعيمِ الأَبديِّ في الآخرَةِ بِصدقٍ عَميقٍ لا تَشوبُهُ شائِبَةٌ؟! إِذِ الشَّاعرُ دائِماً يُفصِحُ عَمَّا يَجولُ في خَفايا نَفسِهِ وشُعورِهِ وإِحساسِهِ:

لِـدُّوا لِـلـمَـوتِ وابـنـوا لِـلـخـرابِ فَـكُـلُّـكُـمْ يَـصـيـرُ إِلـى يـبـابِ
لِـمَـنْ نَـبـنـي ونَـحـنُ إِلـى تُـرابٍ نَـصـيـرُ كَـمـا خُـلـقـنـا مِـنْ تُـرابِ

ويَقولُ:

للهِ دُنـيـا أُنـاسٌ دائـبـيـنَ لَـهـا قَدْ أَرتعوا في رياضِ الغَيِّ والفِتن
كَـسـائِـحـاتٍ رتـاعٍ تَـبـتَـغـي سـمـنـاً وحَتفُها ـ لو درَتْ ـ في ذَلكَ السّمن

وفي إِحدَى قَصائِدِهِ، يُخاطبُ الموتَ قائِلاً:

حَسمتَ المُنَى يا موتُ حَسماً مُبرحاً وعَلَّمتَ يا موتُ البُكاءَ البَواكيا
ومَزَّقتَنا، يا موتُ، كُلَّ مُمَزَّقٍ وعَرَّفْتَنا يا موتُ فيكَ الدَّواهيا
أفي كُلِّ يَومٍ، نَحنُ نَرَى جنازَةً؟ وفي كُلِّ يَومٍ منكَ نَسمعُ نادبا؟
وفي كُلِّ يَومٍ، مِنكَ نَرثي لِمِعْوِلٍ؟ وفي كُلِّ يَومٍ نَحنُ نُسعِدُ باليا؟

فَمِنْ خلالِ هذِهِ الأَبياتِ نَفهَم، أَنَّ «أَبا العتاهيَةِ» زهدَ بِالدُّنيا زُهدَ الفاحِصِ العالمِ الخبيرِ المُجرِّبِ، الَّذي ذاق طعمَ الدُّنيا، وخَبِرَ لَذَّاتِها وشَهواتِها ومُتَعَها الَّتِي لا تَدومُ أَبداً.

وبِشكلٍ خاصٍّ المالَ، المالَ الَّذي ليسَ هوَ سِوَى وسيلة وليسَ غايَةً لِمَنْ عرفَ الحياةَ الدُّنيا عَلى حَقيقَتِها.

عاشَ «أَبو العتاهيَةِ» عُمراً مَديداً وطويلاً، وتوفِّيَ سنةَ (825) ميلاديَّةً، وكانَ مِنْ شِدَّةِ حرصِهِ عَلى إِيصالِ رسالَتِهِ في الزُّهدِ إِلى الآخرينَ، قد أَوصَى أَنْ تُكتَبَ عَلى قبرِهِ الأَبياتُ التَّاليَةُ:

أُذْنَ حَـيٍّ تَـسَـمَّـعـي ... اسـمـعـي ثُـمَّ عِـي وعِـي
أَنـا رَهـنٌ بِـمَـصـرَعـي ... فَـاحـذَري مـثـلَ مَـصـرعـي
عِـشـتُ تـسـعـيـنَ حـجَّـةً ... أَسْـلَـمَـتْـنـي لِـمَـضـجَـعـي
كَـمْ تَـرى الـحـيَّ ثـابِـتـاً ... فـي ديـارِ الـتَّـزَعـزُعِ
لـيـسَ زادٌ سِـوَى الـتُّـقَـى ... فَـخُـذي مِـنـهُ أَو دَعـي

وقَدْ وَصلَنا مِنْ شعرِ «أبي العَتاهيَةِ» ديوانٌ يَضمُّ مَجموعةً مِنَ القَصائِدِ أَغلَبُها في الزُّهدِ والحُبِّ الإِلهيِّ، وقليل منها في المَدحِ والغزلِ والوَصفِ، وحكمٍ وأَمثالٍ.

ولَقَدْ جمعَ أَشعارَهُ الإِمامُ «القُرطبيُّ» في القرنِ الحادي عَشر، ومِنْ ثمَّ أَتَى بَعدَهُ في العصرِ الحديثِ، مَنِ اقتَفَى أَثرَهُ، وأَضافَ إِليهِ ما هوَ مَبثوثٌ في بُطونِ الكُتبِ مِنْ أَشعارٍ وحكمٍ وأَمثالٍ تَعودُ إِليهِ.

دُفِنَ «أَبو العتاهيَةِ» في «بَغدادَ»، ولَمْ يَزلْ قَبرُهُ ماثِلاً هُناكَ إِلى يَومِنا هذا.

الأَسْئِلَةُ وَالْمُنَاقَشَةُ

1 ـ كيفَ كانَتْ قَصائدُ أبي العتاهيَةِ وألحانُهُ الشِّعريَّة؟

2 ـ إِلَى مَنْ نَسَبَ المُؤرخونَ أَبا العتاهيَةِ؟

3 ـ أينَ ولدَ أَبو العتاهيَةِ، وماذا كانَ يعملُ أبوهُ؟

4 ـ كيفَ كانَتْ مدينَةُ الكوفةِ عندما انتقلَ إِليها أبو العتاهيَةِ؟

5 ـ بِماذا انغمرَ أَبو العتاهيَةِ في الكوفَةِ؟

6 ـ ما الَّذي ساعدَ عَلى انتشارِ شعرِ أبي العتاهيَةِ؟

7 ـ لِماذا قامَ الخليفةُ الرَّشيدُ بحبسِ أبي العتاهيَةِ؟

8 ـ ماذا كانَ أبو العتاهيَةِ يُبطنُ في قلبِهِ؟

أَبو تـمَّام
سَاعر البطولات
(796 ـ 843م)

الحَمدُ للهِ رَبِّ العالمينَ، والصَّلاةُ والسَّلامُ عَلى سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ سَيِّدِ الأَنْبياءِ والمُرسلينَ، وبَعد:

أَعِزَّائي:

سَنَقرأُ في هَذِهِ الصَّفحاتِ اليَسيرَةِ قِصَّةَ أَحدِ شُعراءِ العَربِ في العَصرِ العَباسي، وهذا الشَّاعرُ كانَ لَهُ أسلوبُهُ المُمَيَّزُ في ارتجازِ الشِّعرِ الَّذي يَعتَمدُ فيهِ عَلى البَلاغَةِ والتَّراكيبِ والمَعاني والصُّورِ والأَلفاظِ الجَديدَةِ.

طَوَى هذا الشَّاعرُ الأَرضَ تَحتَ قَدميهِ وهوَ يَجوبُ البِلادَ، ويُسافِرُ في الأَصقاعِ، ويَتَحمَّلُ الأَهوالَ، كُلُّ ذَلِكَ في سبيلِ نَشرِ شعرِهِ، وإِحرازِ مَوقعٍ مُتَقَدِّمٍ بينَ شُعراءِ عَصرِهِ، وهذا طُموحٌ مَشروعٌ لِمَنْ كانَ يَمتَلِكُ ناصيَةَ الشِّعرِ، أَو عِندَهُ عِلمٌ مِنْ شِعرِ الأَوَّلينَ.

هذا الشَّاعرُ كانَ كثيرَ الاعتزازِ بِنَفسِهِ وبِشعرِهِ، إِذْ كانَ يَرَى أَنَّ الشَّاعرَ يَجبُ أَنْ يَبقَى

مُحافِظاً عَلَى كِبريائِهِ، ولا يَنبغي عليهِ هَدرُ كَرامَتِهِ، أَو التَّواضُعُ لِمَنْ لَيسوا هُمْ أَهلاً لِذَلِكَ ولا أَهلاً لِأَنْ يَهدرَ الإِنسانُ كَرامتَهُ وكبرياءَهُ لأَجلِهِمْ.

ضَربَ هذا الشَّاعرُ في الأَرضِ طُولاً وعرضاً، وأَقامَ في قُصورِ الخُلفاءِ، وكانَ بِاستِطاعَتِهِ أَنْ يَبلغَ مِنَ الثَّراءِ والغِنَى والجاهِ والسُّلطانِ مُنتَهى ما يَطمَحُ إِليهِ المَرءُ ويَتمناهُ. ولَكنَّهُ آثَرَ العَيشَ مَستورَ الحالِ مِنْ أَنْ يَعيشَ ثَريّاً وغَنياً تَحتَ رَحمَةِ ذَوي الجاهِ والسُّلطانِ.

إِنَّهُ يَتَميَّزُ بِعبقريَّةٍ فَذَّةٍ في تَوليدِ المعاني الجَديدةِ في الشِّعرِ، وفي إِبداعِ الصُّورِ الَّتِي لَمْ يَطرُقْها أَحدٌ غَيرُهُ، ولَمْ تُراودْ مَخيلَةَ الشُّعراءِ قَبلَهُ، ووَصَفَ في شِعرِهِ المَعارِكَ والحُروبَ مُسْتَحضِراً كُلَّ ما فيها مِنْ حَماسٍ وشَجاعَةٍ وإِقدامٍ وجُرأَةٍ عَلَى الأَعداءِ في ساحاتِ الوَغَى. فَليسَ عَجباً أَنْ نُسَميَ هذا الشَّاعرَ: شَاعِرَ البُطولاتِ. فَهَلْ عَرَفتُمْ مَنْ يَكونُ هَذا الشَّاعرُ العَبقَريُّ؟ إِنَّهُ الشَّاعرُ المُجيدُ «أبو تَمَّامٍ» الَّذي مَلأَ الدُّنيا بِشعرِهِ، وشَغَلَ الأَسماعَ بِفَنِّهِ، وسَحرَ الأَلبابَ بِأَدَبِهِ.

فَتعالَوا مَعاً لِنَتَعرَّفَ قَليلاً عَلَى حياةِ هذا الشَّاعرِ في هَذِهِ الصَّفحاتِ الآتيَةِ.

❋ ❋ ❋

الشَّاعرُ «أَبو تَمَّام» أَو «حبيبُ بنُ أَوسٍ» مَجهولُ النَّسبِ عندَ المُؤرخينَ، وحَقيقَةُ أَصلِهِ الحَقيقيِّ ظَلَّتْ غامضَةً حَتَّى يَومِنا هذا.

والسَّببُ في هذا الغُموضِ الَّذي يُحيطُ بِحَقيقَةِ نَسَبِ «أَبي تَمَّامٍ» يَعودُ إِلَى عِدَّةِ احتمالاتٍ نُجملُها فيما يَلي:

الاحتمالُ الأَوَّلُ: إنَّ المُؤرخينَ أَسقَطوا ذَلِكَ عَنْ حياتِهِ عَمداً لِغاياتٍ أَو لأَهدافٍ لا يُمكنُ إحصاؤُها في هذا المَقامِ.

الاحتمالُ الثَّاني: أَو بِسَبَبِ الإهمالِ والتَّقصيرِ وعَدمِ التَّدقيقِ مِنْ جانبِ المُؤرخينَ.

الاحتمالُ الثَّالثُ: وإمَّا لأَنَّ أَصلَ والدِهِ ـ كما رَجَّحَ كثيرٌ مِنَ المُؤرخينَ ـ غيرُ عَرَبيٍّ، وأَنَّهُ كانَ نصرانيّاً مِنْ أَصلٍ يونانيٍّ.

ولِدَ الشَّاعرُ «أَبو تَمَّام» في قَريَةِ «جاسمٍ» الواقِعَةِ في أرضِ حورانَ في بِلادِ الشَّامِ سَنةَ (796) ميلاديَّةً، فَنَشأَ وتَرَعرَعَ في كَنفِ أَبيهِ، وقَضَى طُفولَتَهُ في قَريَةِ «جاسمٍ» المَذكورَةِ.

ويُقالُ: إنَّ الشَّاعرَ «أَبا تَمَّامٍ» اعتَنَقَ الإسلامَ في شَبابِهِ، وأَطلَقَ عَلى أَبيهِ اسماً عَربيّاً هو «أَوسٌ». وأَعلَنَ انتِسابَهُ إِلَى قَبيلَةِ «طَيٍّ» العَربيَّةِ، فَصارَ اسمُهُ: «حَبيباً بنَ أَوسٍ الطَّائيَّ».

ثُمَّ انتَقَلَ مَعَ أَبيهِ مِنْ قَريَةِ «جاسمٍ» إِلَى مَدينَةِ «دِمشْقَ»، حيثُ عَملَ فيها عِندَ حائِكٍ لِيَكسَبَ رِزقَهُ ورِزقَ أَبيهِ. وعِندَما ضاقَ عَليهِ الرِّزقُ، واشتَدَّتْ عليهِ الحالُ في مَدينَةِ «دمشقَ»، انتَقَلَ إِلَى مَدينَةِ «حمصَ» وعَمِلَ فيها في صَنائِعَ شَتَّى، وفي «حمصَ» بَدأَتْ قَريحَتُهُ الشِّعريَّةُ تَشقُّ طَريقَها في عَقلِهِ وفي حياتِهِ، وفيها نَظَمَ أَوَّلَ قَصائِدِهِ في الهِجاءِ.

ولَعَلَّ ما سَاعدَهُ وشَجَّعَهُ عَلَى تَنميَةِ مَوهبَتِهِ الشِّعريَّةِ لِقاؤُهُ واجتِماعُهُ بِالشَّاعرِ المَشهورِ «ديكِ الجنِّ الحمصيِّ»، وقَدْ كانَ «ديكُ الجنِّ» شاعراً مُجيداً لِلشِّعرِ، مُتَمرِّساً بِهِ، عالِماً بِقَواعدِهِ وبُحورِهِ، فَاستَفادَ مِنهُ «أَبو تَمَّامٍ» كَثيراً في تَقويمِ مَعلوماتِهِ الشِّعريَّةِ، وفي مَعرفَةِ أُصولِ الشِّعرِ وأَساليبِهِ وأَغراضِهِ، فَكانَ «ديكُ الجنِّ» بِالنِّسبَةِ لَهُ بِمثابَةِ المُعلِّمِ والأُستاذِ.

وبَعدَ إقامَةٍ طَويلَةٍ في «حمصَ»، انتَقلَ منها «أَبو تَمَّام» قاصِداً بِلادَ مصرَ، وهوَ لا يَزالُ شابّاً يافِعاً في نَحو السَّابِعَة عَشرَةَ مِنْ عُمرِهِ، وقَدْ سافرَ إِلى بِلادِ مصرَ طَلباً لِلرِّزقِ. وفَورَ وصولِهِ إِليها سَخَّرَ اللهُ لَهُ أُناساً هَيَّؤوا لَهُ عَملاً في جامِعِها الكَبيرِ، الجامِعِ الَّذي بَناهُ الصَّحابيُّ والقائِدُ الإِسلاميُّ «عَمرو بنُ العاصِ» عندَما فَتَحَ اللهُ لِلمسلمينَ بِلادَ مصرَ عَلى يَديهِ.

عَملَ «أَبو تَمَّام» بِسقايَةِ الماءِ في جامِعِ مصرَ الكَبيرِ، وكانَ ـ في كَثيرٍ مِنَ الأَحيانِ ـ يَميلُ إِلَى مَجالِسِ العِلمِ، وإِلَى حَلقاتِ الدُّروسِ، الَّتِي كانتْ تُعقَدُ لِطَلبَةِ العِلمِ في رِواقِ الجامعِ المَذكورِ، فكانَ «أَبو تَمَّام» بِناءً عَلَى هذا المَسعَى والاجتهادِ يَعمَلُ ويَتَعلَّمُ في آنٍ واحدٍ معاً. حَتَّى صارَ ضَليعاً في الأَدبِ واللُّغَةِ والشِّعرِ، فَقَدِ استَمعَ إِلَى كبارِ عُلماءِ مِصرَ في تِلكَ الفَترَةِ، في علوم اللُّغَةِ والحديثِ والتَّفسيرِ والفِقهِ.

وعِندَما نَمتْ مَوهبَتُهُ الشِّعريَّةُ، وتَمكَّنَ مِنْ صِناعَةِ الشِّعرِ تَمكُّناً راسِخاً، أَخذَ يَعرضُ بِضاعَتَهُ الشِّعريَّةَ والأَدبيَّةَ هُناكَ، وقَدْ كانَ في مِصرَ ـ حيثُ يُقيمُ أَبو تَمَّام ـ رَجلٌ مِنْ ذَوي الوجاهَةِ والثَّراءِ والنُّفوذِ والرِّياسَةِ يُدعَى «عباسُ بنُ لهيعَةَ الحَضرَميُّ» يُقَرِّبُ الشُّعراءَ والأُدباءَ إِليهِ، ويجزلُ لهمُ العطاءَ، فَاتَّصلَ بِهِ «أَبو تَمام» ومَدحَهُ بِقصيدَةٍ مُتوخِّياً مِنهُ الحظوَةَ والقُربَ والإِكرامَ، ولَكِنْ لَمْ يَنَلْهُ مِنهُ ما كانَ يَرجو ويَأملُ.

وعِندَما ضاقَتْ بِهِ الحالُ، وأَحاطَتْ بِحياتِهِ الهَواجسُ والمَخاوفُ والشَّدائِدُ، آبَ راجعاً مِنْ بِلادِ مصرَ إِلَى مَدينَةِ «دمشقَ»، وعملَ فيها بِبَعضِ الأَعمالِ، إِلَى جانبِ قَرضِهِ

الشِّعرَ، وارتيادِهِ مَجالسَ الشُّعراءِ، وحاوَلَ كثيراً التَّقرُّبَ مِنْ ذَوي الوجاهَةِ والنُّفوذِ، ومَدحَهُمْ بِعدَّةِ قَصائِدَ، ولَكِنَّهُ ـ كَما اعتادَ ـ لَمْ يَنَلْهُ مِنْ حظوَتِهِمْ شَيئاً، ولَمْ يَتحقَّقْ لَهُ مِنْ جانبِهِمْ مُراداً.

فَرحلَ مِنْ جَديدٍ عَنْ مَدينَةِ «دِمشقَ»، وكانَتْ وجهَتُهُ هَذِهِ المَرَّة مَدينَةَ «بغداد» حاضِرَةَ الخِلافَةِ الإِسلاميَّةِ، ومعقَلَ العِلمِ والعُلماءِ في تلكَ الأَثناءِ، وعندَما وَصلَها حاولَ التَّقرُّبَ مِنَ الخَليفَةِ العَباسيِّ «المَأمونِ» لِما عَرفَ عَنهُ مِنْ إِكرامِهِ لِلعُلماءِ والأُدباءِ، ولَكنَّ الحَظَّ لَمْ يُحالفْهُ في الوصولِ إِلَى الخَليفَةِ لِقلَّةِ مَعارِفِهِ، ولِكونِهِ غَريباً عَنْ بَغدادَ.

فَامتَلأَتْ نَفسُهُ يَأساً، وانتَقلَ إِلَى مَدينَةِ «المُوصلِ» ثاني أَكبرِ مُدنِ العِراقِ، وأَكثرِها أَهميَّةً بَعدَ بَغدادَ، وأَقامَ فيها فَترَةً مِنَ الزَّمنِ.

❋ ❋ ❋

تُعَدُّ إِقامةُ «أَبي تَمَّام» في «الموصلِ» بِدايَةَ المرحلَةِ الثَّانيةِ مِنْ تاريخِ حياتِهِ الحافِلَةِ بِالمَشاقِّ، حيثُ كانَتِ الأَقدارُ تُعدُّ لَهُ ما سَيفرِّجُ عَنهُ كَربَهُ، ويَقضي عَلى اليأسِ في نَفسِهِ وحياتِهِ، ويَضَعُهُ في أَحضانِ ورِعايَةِ ذَوي الجاهِ والسُّلطانِ.

فَفي «الموصلِ»، بَدأَتْ شُهرتُهُ كَشاعرٍ تَشقُّ أبياته طَريقَها في أَسماعِ النَّاسِ، وتَناقَلَ النَّاسُ شعرَهُ الَّذي يَتَّصفُ بِقوَّةِ التَّفكيرِ، وسعةِ الخيالِ، وجزالةِ الأَلفاظِ، ورَوعَةِ التَّصويرِ، فَوصلَ صيتُهُ إِلَى الخَليفَةِ العباسيِّ «المُعتَصمِ» في بَغدادَ، فَأُعجبَ بِشعرِهِ، واسْتَقدَمهُ إِليهِ،

وأكرمَ مَثواهُ، وأغدقَ عليهِ بِالعطاءِ، وصارَ «أبو تَمَّام» رَفيقَ الخَليفَةِ في أَسفارِهِ وحروبِهِ، يَصفُ كُلَّ ما يَقعُ مِنْ حادثاتٍ ووَقائِعَ، مادحاً الخليفَةَ بِما يَستَحقُّ.

ومِمَّا قالَهُ في مَدحِ «المُعتَصمِ»:

هذا البَحرُ مِنْ أَيِّ النَّواحي أتيتَهُ ... فَلجَّتُهُ المَعروفُ والجودُ ساحلُه

تَعَوَّدَ بسطَ الكَفِّ حَتَّى لو أَنَّهُ ... ثَناها لِمعصَمِهِ لَمْ تُطعْهُ أَناملُه

ولو لَمْ يَكُنْ في كَفِّهِ غير روحِهِ ... لَجادَ بِها فَليَتَّقِ اللهَ سائِلُه

وكانَ مِمَّا قالَهُ في مَدحِ المَأمونِ قَبلَهُ:

اللهُ أَكبَرُ جاءَ أَكبَرُ مَنْ جَرَتْ ... فَتَعثَّرتْ في كنهِهِ الأَوهامُ

مَنْ شَرَّدَ الإِعدامَ عَنْ أَوطانِهِ ... بِالبَذلِ حَتَّى استُطرفَ الإِعدامُ

وتَكفَّلَ الأَيتامَ مَنْ آبائِهِمْ ... حَتَّى ودَدنا أَنَّنا أَيتامُ

ومِنَ المُلاحظِ في شِعرِ «أَبي تَمَّام»، أَنَّهُ أَدخَلَ أَلفاظاً وصُوراً وأَساليبَ جَديدَةً عَلى شِعرِ المَديحِ، ولِهذا لاقَى شِعرُهُ رواجاً وصَدىً واسعاً عندَ عامَّةِ النَّاسِ وخاصَّتِهِمْ عَلى السَّواءِ.

وعندَما خرَجَ «المُعتَصمُ» إِلَى حَربِ «عَموريَّةَ» الشَّهيرَةِ الَّتِي قادَ خِلالَها الجُندَ بِنَفسِهِ، وذَلكَ بَعدَ أَنْ بَلَغَتْهُ صَيحَةُ تِلكَ المَرأَةِ المُسلمَةِ الَّتِي تَعرَّضَتْ لِلإِهانَةِ والإِذلالِ في أَحدِ شَوارِعِ «عموريَّةَ» مِنْ قِبَلِ بَعضِ جُنودِ الرُّومِ، فَصاحَتْ بِأَعلَى صوتِها: «وامُعتَصِماهُ!» خَرجَ «أَبو تَمَّام» مَعَهُ، وكانَ رَفيقَهُ في فَتحِ «عموريَّةَ»، وقامَ بِوصفِ تِلكَ الحربِ في «بائِيَّتِهِ» الشَّهيرَةِ في فَتحِ «عموريَّةَ» وتَحريرِها مِنْ أَيدي الرُّومِ، وبَعدَ هذِهِ القصيدةِ اكتَسَبَ «أَبو

تَمَّامٍ» شهرَةً واسِعَةً بينَ النَّاسِ في كافَّةِ أَرجاءِ الخِلافَةِ، وفي كُلِّ أَصقاعِ وبُلدانِ العالَمِ العَربيِّ والإِسلاميِّ حينَها.

وصارَتْ قَصيدَةُ فَتحِ «عموريَّةَ» مَلحمَةً شَعبيَّةً يَتفاخرُ بِها العربُ والمُسلمونَ، ووَجدَ فيها المُسلمونَ تَخليداً لِانتصاراتِهِمْ، ومِمَّا قالَهُ «أَبو تَمَّامٍ» في تِلكَ القَصيدَةِ وهوَ يُشيدُ بِالخَليفَةِ «المُعتَصمِ»:

تَدبيرُ «مُعتَصمٍ» بِاللهِ مُنتَقمِ ... للهِ مُرتَقبٍ في اللهِ مُرتَغبِ

لَمْ يَغزُ جيشاً ولَمْ يَنهَضْ إِلَى بَلدٍ ... إِلَّا تَقدَّمَهُ جيشٌ مِنَ الرُّعبِ

لو لَمْ يَقُدْ جَحفَلاً يومَ الوَغَى لَغدا ... مِنْ نَفسِهِ وحدِها في جحفَلٍ لجَبِ

❋ ❋ ❋

بعدَ عودَتِهِ مِنْ فَتحِ «عموريَّةَ» في صُحبَةِ الخَليفَةِ «المُعتصمِ»، حَنَّ «أَبو تَمَّامٍ» في نَفسِهِ إِلى الحَلِّ والتّرحالِ؛ لأَنَّهُ كانَ مُغامراً شَديداً، ذا عُنفوانٍ وبَأسٍ مَضَّاءٍ، لا يَستَقرُ في مَكانٍ، ولا يَركنُ طَويلاً إِلى مُقامٍ، وكانَ مِنْ عادَتِهِ أَنَّهُ إِذا أَقامَ في مَكانٍ وعُرِفَ فيهِ مِنْ قبلِ النَّاسِ؛ يَتحوَّلُ عَنهُ إِلَى مَكانٍ آخرَ طَلباً لِلشُّهرَةِ؛ إِذْ إِنَّهُ كانَ يَعتَدُّ بِنَفسِهِ كثيراً.

فَغادرَ مَدينَةَ «بَغدادَ» مُيَمِّماً وجهَهُ قِبلَ بِلادِ «خُرَّاسانَ» في أَرضِ فارس، استجابَةً لِدعوةٍ واليها «عبدِ اللهِ بنِ طاهرٍ» الَّذي كانَ يُجلُّ الأُدباءَ والشُّعراءَ، وبِشَكلٍ خاصٍّ الَّذينَ يَمدحونَهُ مِنهُمْ، إِضافَةً إِلَى كَونِهِ شاعراً وأَديباً.

أَقامَ «أَبو تَمَّامٍ» في «خُرَّاسانَ» فترَةً طَويلَةً مِنَ الزَّمنِ، وفي أَثناءِ عَودَتِهِ مِنْ عندِ

«عبدِ اللهِ بنِ طاهرٍ» مَنَعَتْهُ الأَمطارُ والثُّلوجُ الغَزيرَةُ مِنْ مواصَلَةِ طَريقِ السَّفرِ والعَودَةِ إِلى العِراقِ، فَأَقامَ في «همذانَ» في دارِ «أبي الوَفا بنِ أبي سلمَةَ»، وشَرعَ خلالَ ذَلِكَ في تأليفِ وجَمعِ كتابِ «الحماسَةِ».

وبَعدَ عودَتِهِ مِنْ بِلادِ فارس أَقامَ في مَدينَةِ «الموصلِ»، وأَمضَى فيها بَقيَّةَ حياتِهِ، وعَمِلَ عندَ كاتِبِ والي «الموصِلِ» «الحسنِ بنِ وَهبٍ» في ديوانِ الرَّسائِلِ، وهي وظيفَةٌ مرموقَةٌ في ذَلِكَ الزَّمانِ، ولا تُسنَدُ إِلَّا لأَصحابِ الخبرَةِ والكَفاءَةِ العاليَةِ، وللذينَ يُوثَقُ بِأَمانَتِهِمْ وولائِهِمْ ووَفائِهِمْ لِلبلادِ والسُّلطانِ.

وما زالَ «أَبو تَمَّامٍ» قائِماً عَلى عَملِهِ ووَظيفَتِهِ تِلكَ حَتَّى وافَتْهُ المَنيَّةُ، ورحلَ عَنِ الدُّنيا سنَةَ (843) ميلاديَّةً، وهوَ لَمْ يُناهزِ الخَمسينَ مِنْ عُمرِهِ، ودُفنَ في المُوصلِ.

هذا، وقَدْ تَركَ لَنا ديواناً شعريّاً كبيراً فيهِ مِنْ نفائِسِ الشِّعرِ العربيِّ ما يَجعلُنا نَضَعُهُ في مُقدِّمةِ شُعراءِ العربِ في العُصورِ الإِسلاميَّةِ.

كانَ «أَبو تَمَّامٍ» شاعراً موسوعيّاً، وكاتِباً وأَديباً أَريباً، إِذْ كانَ لَهُ ـ إِضافَةً إِلى ديوانِهِ ـ عِدَّةُ كُتُبٍ قامَ بِتَصنيفِها، وهيَ كالتَّالي:

1 ـ كتابُ الاختيارِ مِنْ أَشعارِ العربِ: جَمعَ فيهِ شعراً لِشُعراءَ مِنْ قبائِلَ مُختلفَةٍ.

2 ـ كتابُ الاختياراتِ مِنْ شعرِ الشُّعراءِ: وجَمعَ فيهِ مختاراتٍ شعريَّةً لِشعراءَ لا يُعرَفُ عَنهُمْ إِلَّا القَليلُ.

3 ـ كتابُ الفُحولِ: جمعَ فيهِ أَجوَدَ القَصائِدِ لِشعراءِ الجاهليَّةِ والإِسلامِ.

4 ـ كتابُ الحماسَةِ: وهوَ آخِرُ ما صَنَّفَهُ مِنْ كُتُبٍ بعدَ ديوانِهِ الخاصِّ بِهِ، وجَمعَ في هذا الكتابِ أَجودَ وأجملَ أَشعارِ العربِ مِنَ الجاهليَّةِ حتَّى العصرِ العباسيِّ.

5 ـ اختيارُ المَقطعاتِ: جمعَ فيهِ مقطوعاتٍ شعريَّةً لِشعراءَ منَ الجاهليَّةِ والإِسلامِ.

6 ـ مُختاراتٌ مِنْ شعرِ المُحدَثينَ: لِشعراءِ العصرِ العبَّاسيِّ، وقليلٍ منِ شعراءِ العصرِ الأُمويِّ.

7 ـ نَقائِضُ جَريرٍ والأَخطلِ: ذَكرَ فيهِ عشرينَ نَقيضَةً للشاعرَينِ، معَ نَقائِضَ لِلفرَزدَقِ، ولِبَعضِ شُعراءِ الجاهليَّةِ.

❋ ❋ ❋

إِنَّ ما يُمَيِّزُ شَخصيَّةَ «أَبي تَمَّام» في شِعرِهِ، اهتِمامُهُ بِالصَّداقَةِ والصَّديقِ، ووَصفُ عواطفِ الصَّداقَةِ، وبَيانُهُ لِما يَجبُ أَنْ تكونَ عليهِ الصَّداقَةُ، ويَكونُ عليهِ الصَّديقُ، فَمثلاً، يَقولُ في بَعضِ قَصائِدِهِ مُبيِّناً حرصَهُ، واهتمامَهُ بِالصَّداقَةِ:

مَنْ لي بِإِنسانٍ إِذا أَغضَبتَهُ ... وجهلتُ عليهِ كانَ الحلمُ ردَّ جوابِهِ

وإِذا طَربتُ إِلَى المُدامِ شَربتُ مِنْ ... أَخلاقِهِ وسَكرتُ مِنْ آدابِهِ

وتراهُ يُصغي لِلحديثَ بِقلبِهِ ... ويَسمعُهُ ولَعلَّهُ أَدرى بِهِ

ويَقولُ مُشيراً إِلَى قيمَةِ المَحبَّةِ المُتبادلَةِ بينَ الأَصدقاءِ في بيتٍ مِنْ أَروَعِ ما قالَهُ الشُّعراءُ في المَحبَّةِ بينَ الأَصدقاءِ:

نَقِّلْ فُؤادَكَ حيثُ شِئتَ مِنَ الهَوى ... ما الحُبُّ إِلّا لِلحبيبِ الأَوَّلِ

كَمْ مَنزلٍ مِنَ الأَرضِ يَألفُهُ الفَتَى وحَنينُهُ أَبداً لأَوَّلِ منزلِ

وعَنِ الصَّداقَةِ يَقولُ أَيضاً:

كَتبتُ لو قدرتُ هَوىً وشَوقاً إِليكَ لَكنتُ سَطراً في كتابِ

كَما أَنَّ هناكَ كثيراً مِنْ أَشعارِ «أَبي تَمَّامٍ» تَنطوي عَلى قَدرٍ كبيرٍ مِنَ الحكمَةِ والاعتبارِ في الحياةِ، يَقولُ عنِ الدُّنيا:

دُنيا معاشٌ لِلوَرى حتَّى إِذا حلَّ الرَّبيعُ فَإِنَّما هيَ منظَرُ

ويَقولُ في ذَمِّ الحسدِ البَغيضِ:

وإِذا أَرادَ اللهُ نَشرَ فَضيلَةٍ طُويَتْ أَتاحَ لها لِسانَ حَسودِ

لولا اشتعالُ النَّارِ فيما جاورَتْ ما كانَ يُعرَفُ طيباً عرفُ العودِ

ويَقولُ مُشيراً إِلَى قيمَةِ العَقلِ وسدادِ الرَّأيِّ:

وليسَ يُجلي الكَربَ رمحٌ مُسَدَّدٌ إِذا هوَ لَمْ يُؤنَسْ بِرأيٍ مُسَدَّدِ

ويَقولُ في هذا الصَّددِ أَيضاً:

الصَّبرُ كاسٌ وبَطنُ الكَفِّ عاريَةٌ والعقلُ عارٍ إِذا لَمْ يُكسَ بِالنَّشبِ

وقَدْ قيلَ عَنْ شعرِ «أَبي تَمَّام» بِأَنَّهُ الشِّعرُ الَّذي لا يُفهمُ، فمنَ الطَّرائِفِ الَّتِي ذكرَها الرُّواةُ في هذا المَجالِ، أَنَّ رجلاً لَقيَ «أَبا تَمَّامٍ» يوماً، فقالَ لَهُ: لِماذا شعرُكَ لا يُفهَمُ؟ فَأَجابَهُ قائِلاً: لأَنَّكَ لا تَفهمُ.

الأَسْئِلَةُ وَالْمُنَاقَشَةُ

1 ـ لِماذا كانَ أَبو تَمَّامٍ يجوبُ البلادَ ويسافرُ في الأَصقاعِ؟

2 ـ بِماذا كانَ يَتميَّزُ أبو تَمَّامٍ؟

3 ـ ما هيَ أسبابُ غموضِ نسبِ أَبي تَمَّامٍ؟

4 ـ أَينَ ولِدَ أبو تمَّامٍ، وفي أيِّ عامٍ؟

5 ـ منِ الَّذِي ساعدَ أَبا تمَّام عَلى تنميَةِ موهبتِهِ الشِّعريَّةِ؟

6 ـ ماذا عملَ أبو تمَّامٍ في مصرَ، وإلى ماذا كانَ يَميلُ؟

7 ـ ماذا عملَ أبو تمامٍ في الموصلِ قبلَ وفاتِهِ؟

8 ـ ما هيَ مُصنَّفاتُ أبي تَمَّامٍ؟

البحتريُّ
شاعر الوصفِ
(821 ـ 897م)

الحَمدُ للهِ رَبِّ العالمينَ، والصَّلاةُ والسَّلامُ عَلى سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ سَيِّدِ الأَنْبياءِ والمُرسلينَ، وبَعد:

أَعِزَّائي:

سَنَقرأُ في هَذِهِ الصَّفحاتِ اليَسيرَةِ قِصَّةَ شاعرٍ عَربيٍّ مُجيدٍ، شاعرٍ ساهمَ إِسهاماً مَلحوظاً في تَطويرِ وإِذكاءِ حركةِ الشِّعرِ العربيِّ في العصرِ العباسيِّ، وأَحسنَ صُنعاً في ذَلكَ، وأَملَى في سِجلِّ الخالدينَ مِنْ شُعراءِ العربِ إِملاءً حَسناً، مُتَميِّزاً عَلى شُعراءِ عصرِهِ بِقوَّةِ الوصفِ، ورَهافَةِ الإِحساسِ، وبِالشُّعورِ العارِمِ بِجمالِ الطَّبيعَةِ، وما فيها مِنَ الجميلِ والجليلِ مِنَ الأَشياءِ.

عاصَرَ هذا الشَّاعرُ أَغلبَ خُلفاءِ بَني العبَّاسِ، وتَقلَّبَ في رياضِ نَعيمِهِمْ، وفازَ بِحصَّةِ الأَسدِ مِنَ الهباتِ والهدايا الَّتي خَصَّصوها لِلشُّعراءِ والمَدَّاحينَ، وحازَ مِنهُمْ منزلَة عاليَةً لَمْ يَنَلْها أَحدٌ مِنَ الشُّعراءِ قَبلَهُ ولا بَعدَهُ، وحَسَدَهُ عليها القاصي والدَّاني، فَكانَ الشَّاعرَ

المُدلَّلَ عندَ خُلفاءِ بني العبَّاسِ وكِبارِ عُمَّالِهِمْ ووزرائِهِمْ، فَقَدِ استفادَ كثيراً مِنَ الأَحوالِ المُضْطَربَةِ، ومِنَ الخِلافاتِ والفتَنِ الَّتِي عَصَفَتْ بِالحياةِ السِّياسيَّةِ والاجتماعيَّةِ في عَصرِهِ، وبِالعداواتِ الَّتِي تَأَجَّجَتْ نارُها بينَ الخُلفاءِ العباسيينَ، فَراجَتْ بِضاعَتُهُ الشِّعريَّةُ عِندَهُمْ، ولا سِيَّما شعرُ المَديحِ، وعاشَ حالةَ التَّرفِ الشّعريِّ والأَدبيِّ، وهوَ يَتَنَقَّلُ مِنْ خليفَةٍ إِلى آخرَ يَعقبُهُ، وكَأَنَّهُ يَرثُ عِنايَتَهمْ واهتمامَهُمْ واحداً تِلوَ الآخر، حَتَّى صارَ شاعرَ الدَّولَةِ الَّذِي لا يُدانيه في قَصرِ الخلافَةِ شاعرٌ آخَرُ، وبِشَكلٍ خاصٍّ في عهدِ الخليفَةِ «المُتوَكِّلِ».

وكَما اشتُهرَ هذا الشَّاعرُ بِالوَصفِ في شعرِهِ، فَإِنَّهُ أَيضاً اشتُهرَ بِالمُوسيقا في شعرِهِ الَّذِي يُطربُ الأَسماعَ، فَكانَ لشِعرِهِ إِيقاعٌ مُوسيقيٌّ قِوامُهُ الأَلفاظُ العذْبَةُ الرَّتيبَةُ المُتناسِقَةُ معَ الوَزنِ والقافيَةِ، بِحيثُ يتركُ أَثراً طَيِّباً في أُذنِ السَّامعِ وذِهنِهِ، ولِذا قيلَ عنهُ مِنْ قبَلِ أَحدِ المُؤرِّخينَ وهو «ابنُ الأَثيرِ»: «أَرادَ أَنْ يُشعرَ فَغَنَّى». وقالَ عنهُ أَحدُ النُّقادِ: «قَينَةُ الشُعراءِ» أَي: مُطربُ الشُّعراءِ.

ولَكِنْ مِمَّا يُؤخذُ عَلى هذا الشَّاعرِ الفَنَّانِ، حرصُهُ الشَّديدُ عَلى التَّكسُّبِ، واستجداءِ المالِ والعطاءِ عَنْ طريقِهِ، فَكانَ يَبذُلُ شِعرَهُ مُقابِلَ جَمعِ مَزيدٍ مِنَ المالِ، والحُصولِ عَلى أَكبرِ قَدرٍ مِنَ المَنفَعةِ يَستَطيعُها لِكُلِّ راغبٍ في المَديحِ، ولو لَمْ يَكُنْ مَمدوحُهُ أَهلاً لِلمديحِ، أَو لِما يَصِفُهُ بِهِ، فَكانَ الشِّعرُ بينَ يَديهِ سُلعَةً تَتَحكَّمُ في جودَتِهِ معاييرُ العرضِ والطلبِ حَسبَ حالةِ الممدوحِ غِنىً وثراءً ونُفوذاً.

ورُبَّما مدَحَ الشَّخصَ حيناً، ثُمَّ انقلبَ عليهِ هجاءً وذَمّاً في حينٍ آخرَ إِذا أَجحفَ عليهِ

بِالعطاءِ، أَو دارَتِ الأَيَّامُ على ممدوحِهِ مِنْ رِفعَةٍ وقُوَّةٍ إلى ضِعَةٍ وضعفٍ. ولِهذا وصِفَ بِعدمِ الوَفاءِ لِمَمدوحيهِ.

وفي الحقيقَةِ، إنَّ هذا الشَّاعرَ كانَ يَمتثِلُ في هذا الأَمرِ روحَ عَصرِهِ الَّذِي اتَّسمَ بِالفَوضَى والحرصِ عَلى المنافِعِ الشَّخصيَّةِ، في وَقتٍ كانَ الفسادُ فيهِ طريقاً نَحوَ تَحقيقِ المجدِ الشَّخصيِّ، وتَأمينِ الحياةِ والمُستَقبلِ، ونيلِ مظاهرِ التَّرفِ والسَّعادةِ الدُّنيويَّةِ، وتَجنُّبِ مظاهرِ الفَقرِ والشَّقاءِ، حَيثُ لَمْ يَكُنْ لِلخليفَةِ ذاتِهِ مِنْ سَيطرةٍ ونُفوذٍ إلَّا داخِلَ جُدرانِ قَصرِهِ، بينَما تَناهبَ السَّيطرةَ على أُمورِ الحُكمِ وخيراتِ البِلادِ الخَدمُ والمَوالي وكبارُ قُوَّادِ الجُندِ مِنَ الأَتراكِ والأَعاجمِ والمُفسدينَ.

فَكانَ هذا الشَّاعرُ يَميلُ معَ الرِّيحِ حيثُ تَميلُ، حَتَّى صارَ مِنْ أَغنى شُعراءِ عصرِهِ، ومِنْ أَكثَرِهِمْ ثراءً وجاهاً، ورغمَ هذا لا يُمكنُنا أَنْ نَغفلَ ما كانَ يَتحَلَّى بِهِ هذا الشَّاعرُ مِنْ نَزعةٍ قَوميَّةٍ، ومِنْ روحٍ وَطنيَّةٍ وثَّابَةٍ لِتَحقيقِ مَجدِ أُمَّتِهِ وبِلادِهِ وأَوطانِهِ.

فَهلْ عَرَفتُمْ مَنْ يَكونُ هذا الشَّاعرُ الكبيرُ؟

إنَّهُ شاعرُ الوَصفِ، وشاعرُ الطَّيفِ والخيالِ كما قيلَ عنهُ، البحتريُّ، تلميذُ الشَّاعرِ أَبي تَمَّامٍ.

فَتعالوا الآنَ لِنتعرَّفَ عَلى أَهمِّ أَحداثِ حياتِهِ.

❋ ❋ ❋

يُنسَبُ البحتريُّ إلى بَني طيءٍ مِنَ القَحطانِيَّةِ، وهُمْ قَبائِلُ عربيَّةٌ يَمانيَّةٌ سَكَنَتْ في

البوادِي المُحيطةِ بِحلبَ قربَ منبج، وقَدْ لُقِّبَ بِـ «البحتريِّ» نِسبَةً إِلى أَحدِ أَجدادِهِ وكانَ اسمُهُ «بُحترُ».

واسمُ البحتريِّ الحَقيقيُّ، هو: «الوَليدُ بنُ عُبيدِ بنِ يَحيَى» ويُكَنَّى بِـ «أَبي عُبادةَ»، ولِدَ في شمالِ سوريا، حيثُ يُقيمُ قَومُهُ الطَّائِيونَ في بَلدَةِ «منبج» الواقِعةِ بينَ حلبَ والفُراتِ سنةَ (821) ميلاديَّةً، وقيلَ: في قريَةِ «زَرْدَفْنَةَ» وهي مِنْ قُرَى «منبج» وقريبَةٌ مِنْها.

كانَتْ بَلدَةُ منبج في ذلِكَ الوَقتِ قريَةً صغيرَةً ومَعروفَةً بِجمالِ موقِعها، وحُسنِ مناظِرِها، وتُمَثِّلُ ثُغراً مِن أَهمِّ الثُّغورِ لِلبلادِ عَلى الحدودِ الشَّماليَّةِ لِبلادِ الشَّامِ، تُقيمُ فيها حامياتُ الجيوشِ العربيَّةِ الإِسلاميَّةِ، ويَقصِدُها المُرابِطونَ في سبيلِ اللهِ ﷻ لِرَصدِ الجيوشِ الرُّومانيَّةِ وصَدِّها عَنِ الغاراتِ عَلى البِلادِ، وحمايَةِ الحدودِ الشَّماليَّةِ لِلخلافَةِ العبَّاسيَّةِ مِنْ جِهةِ بِلادِ الشَّامِ، إِضافَةً إِلى كونِها معقلاً ومَوطناً لِلقبائِلِ العربيَّةِ الطائِيَّةِ الَّتِي عُرِفَتْ بِأَخلاقِها العربيَّةِ البَدويَّةِ، وبِثقافَةِ أبنائِها الواسِعَةِ، وخاصَّةً في الأَدبِ والشِّعرِ، ويُقالُ: بَناها كِسرَى لَمَّا سَيطرَ الفُرسُ عَلى بِلادِ الشَّامِ وسَمَّاها «مَنبَه» ثُمَّ عُرِّبَتْ فَأَطلقَ عليها العربُ «مَنبج».

نَشَأَ «البحتريُّ» وتَرعرَعَ في «منبج»، ودرجَ فيها بينَ أَبناءِ قَومِهِ، وعاشَ منذُ نُعومَةِ أَظفارِهِ على أَخلاقِ البَداوَةِ الَّتِي فيها شَيءٌ مِنَ الغلظَةِ والقسوَةِ والدَّماثَةِ في الطَّبعِ، فَاكتَسبَ فَصاحةَ قَومِهِ، وتَشرَّبَ ثَقافَتَهُمْ، ومنذُ صغرِهِ كانَ مُحباً لِلشِّعرِ، ولعلَّ حياةَ البَداوَةِ قَدْ ساعدَتْهُ عَلى ذلِكَ كثيراً بِما وَفَّرتْهُ لَهُ مِنْ صَفاءِ الذِّهنِ وسِعةِ الخيالِ. وما أَنْ ناهزَ الحُلمَ

حَتَّى بَدأَتْ صِناعَةُ القَريضِ تُراودُ عَقلَهُ، وتَطْغَى عَلى اهتمامِهِ، وسُرعانَ ما أَصبحَ مُتَمكِّناً مِن الشِّعرِ صِياغَةً وإِلقاءً، وجذبَ اهتمامَ أَبناءِ قومِهِ إِليهِ، حيثُ صارَ شاعرَهُمُ المُقَدَّمَ وهوَ لَمْ يَزَلْ شَابّاً في مُقتَبلِ العُمُرِ.

وعِندَما لَمعَ صيتُ الشَّاعرِ «أَبي تمَّام» وعَمَّتْ شهرَتُهُ البِلادَ، رَحلَ إِليهِ «البحتريُّ» إِلى حيثُ كانَ يُقيمُ في مَدينَةِ حمصَ لأَجلِ الاستفادَةِ مِنهُ، والتَّزَوُّدِ مِنْ معارِفِهِ الأَدبيَّةِ والشِّعريَّةِ، وعرضِ شعرِهِ عليهِ.

وفي أَحدِ الأَيَّامِ جلسَ «أَبو تَمَّام» ليَسمَعَ مِنْ بَعضِ الشُّعراءِ ما يَعرضونَهُ عليهِ مِنْ شعرِهِمْ، فكانَ مِنْ بينِهِمُ «البحتريُّ» ذَلكَ الشَّاعرُ الشَّابُّ الَّذِي لَمسَ فيهِ الذَّكاءَ والجودَةَ في القَريضِ، فَتَفوَّقَ عليهِمْ جميعاً، وأَثارَ إِعجابَ الجميعِ، وبِشكلٍ خاصٍّ «أَبي تَمَّامٍ».

لَزِمَ «البحتريُّ» أُستاذَهُ «أَبا تَمَّام» بَعدَ أَنْ تَوَثَّقَتِ الصِّلَةُ بَينَهُما، فَأَخذَ عَنهُ كَثيراً مِنَ الأُمورِ الَّتِي عادَتْ عليهِ بِالنَّفعِ والفائِدةِ، كما عاملَهُ «أَبو تمامٍ» مُعاملَةً حَسنَةً، وأَحاطَهُ بِعنايَتِهِ ورِعايَتِهِ وعَطفِهِ، كما لَمْ يَنسَ «البحتريُّ» فَضلَ أُستاذِهِ عليهِ، فَظَلَّ طوالَ عُمرِهِ يَذكرُ فَضلَهُ ويُثني عليهِ حامداً لَهُ جهودَهُ ومَعروفَهُ.

وها هوَ ذا يَروي قِصَّةَ صُحبَتِهِ لَهُ وتَتَلمُذِهِ عليهِ، وما أَملاهُ عليهِ «أَبو تَمَّامٍ» مِنْ نصائِحَ جمَّةٍ تَصلُحُ أَنْ تَكونَ قَواعدَ وأُسُساً لِكُلِّ شاعرٍ في عَصرِنا هذا، جاءَ في كتابِ «زهرَةِ الآدابِ» لِلقيرواني: قالَ «البحتريُّ»:

«كنتُ في حداثتي أَرومُ الشِّعرَ، وكنتُ أَرجعُ فيهِ إِلى طَبعي، ولَمْ أَكُنْ أَقفُ عَلى

تَسهيلِ مَأْخَذِهِ، ووجوهِ اقتِضابِهِ، حَتَّى قَصدْتُ أَبا تَمَّامٍ، وانقَطعتُ فيهِ إِليهِ، فَكانَ أَوَّلَ ما قالَ لي:

«يا أَبا عُبادَةَ، تَخَيَّرِ الأَوقاتَ، وأَنتَ قَليلُ الهُموم، صِفرٌ مِنَ الغُمومِ، واعلَمْ أَنَّ العادَةَ جَرَتْ في الأَوقاتِ، أَنْ يَقصدَ الإِنسانُ لِتأَليفِ شَيءٍ أَو في حِفظِهِ في وَقتِ السَّحرِ، وذَلِكَ أَنَّ النَّفسَ قَدْ نالَتْ حَظَّها مِنَ الرَّاحَةِ، وقِسطَها مِنَ النَّومِ. وإِنْ أَردتَ التَّشبيبَ، فَاجعلِ اللَّفظَ رَقيقاً، والمعنَى رَشيقاً، وأَكثِرْ فيهِ مِنْ بيانِ الصَّبابَةِ، وتَوجُّعِ الكآبَةِ، وقَلقِ الأَشواقِ، ولَوعَةِ الفُراقِ، فَإِذا أَخَذتَ في مَديحِ سَيِّدٍ ذي أَيادٍ، فَأَشهرْ مَناقِبَهُ، وأَظهِرْ مناسِبَهُ، وأَبِنْ معالِمَهُ، وشَرِّفْ مَقامَهُ. ونَضِّدِ المَعاني، واحذَرِ المَجهولَ مِنها، وإِيَّاكَ أَنْ تُشينَ شِعركَ بِالأَلفاظِ الرَّزيَّةِ، ولِتَكُنْ كَأَنَّكَ خَيَّاطٌ يَقطعُ الثِّيابَ عَلى مقدارِ الأَجسادِ. وإِذا عارَضَكَ الضَّجرُ، فَأَرِحْ نَفسَكَ، ولا تَعمَلْ شعرَكَ إِلَّا وأَنتَ فارِغُ القَلبِ، واجعَلْ شَهوَتَكَ إِلى الشِّعرِ الذَّريعَةَ إِلى حُسنِ نَظمِهِ، فَإِنَّ الشَّهوَةَ نِعمَ المُعينِ، وجُملَةُ الحالِ أَنْ تَعتَبِرَ شعرَكَ بِما سَلَفَ مِنْ شِعرِ الماضينَ، فَما اسْتَحسَنَ العُلماءُ فَاقْصدْهُ، وما تَركوهُ فَاجْتَنِبْهُ تُرشَدْ إِنْ شاءَ اللهُ تَعالَى».

قالَ «البحتريُّ»: فَأَعمَلتُ نَفسي فيما قالَ، فَوفِّقْتُ عَلى السِّياسَةِ».

وكانتْ مِنْ أَوَّلِ ما أَلقاهُ «البحتريُّ» عَلى أُستاذِهِ أَبي تَمَّامٍ قَصيدَتُهُ المَشهورَةُ الَّتي يَمدَحُ فيها أَميرَ الجزيرَةِ الفُراتيَّةِ في ذَلكَ العهدِ «أَبا سَعيدٍ الثُّغريَّ الحميديَّ الطَّائيَّ» الَّتي يَقولُ فيها:

أَأَفاقَ صَبٌّ مِنْ هَوى فَأَفيقا ... أَمْ خانَ عهداً أَمْ أَطاعَ شَفيقا

أَشَقيقَةَ العلمينِ هَلْ مِنْ نَظرَة ... فَتَبُلُّ قَلباً لِلغَليلِ، شَقيقا

غَدَتِ الجزيرَةُ في جَنابِ مُحمَّدٍ ... رَيَّا الجَنابِ، مَغارِباً وشُروقا

رَفعَ الأَميرُ أَبو سَعيدٍ ذِكرَها ... وأَقامَ فيها لِلمكارِمِ سوقا

❋ ❋ ❋

بَعدَ لُزومِهِ «أَبا تَمَّامٍ» عادَ إِلى «منبج»، فَأَقامَ فيها فَترَةً مِنَ الزَّمنِ، ثُمَّ فَكَّرَ بِالتَّوجُّهِ إِلى بَغدادَ عاصمَةِ الثَّقافَةِ والحضارةِ والخلافَةِ لِيُحَقِّقَ طُموحَهُ المُتَطلِّعَ نَحوَ الشُّهرَةِ والثَّراءِ، ولا سِيَّما أَنَّ أُستاذَهُ وصَديقَهُ «أَبا تَمَّامٍ» أَصبَحَ هُناكَ مُقَرَّباً مِنَ الخليفَةِ «المُعتَصمِ».

وفي سَنةِ (840) ميلاديَّةً خَرجَ مِنْ «منبج» قاصداً بَغدادَ عَنْ طَريقِ الجزيرَةِ، وفي طَريقِهِ مَرَّ عَلى واليها «مالِكِ بنِ طَوقٍ» زَعيم بَني تَغلب، وقالَ شِعراً يَمدَحُهُ فيهِ. ومِمَّا زادَ مِنْ شهرَةِ «البحتريِّ» قبلَ وصولِهِ بَغدادَ، أَنَّهُ أَطلقَ أَشهرَ قَصائِدِهِ وهيَ «البائيَّةُ» الَّتي يَصفُ فيها رِحلَتَهُ إِلى بغدادَ، وما اعترضَ طريقَهُ مِنْ أَهوالٍ ومَسرَّاتٍ، وخاصَّةً عندَما لَقيَهُ ذِئبٌ في أَحدِ الوديانِ فَوصفَ حكايَتَهُ مَعهُ بِأُسلوبٍ يَخلبُ الأَلبابَ، قالَ:

وأَطلسَ مِلءِ العينِ يَحملُ زَورَهُ ... وأَضلاعُهُ مِنْ جانبيهِ شوىً نَهدُ

لَهُ ذَنَبٌ مِثلُ الرِّشاءِ يَجرُّهُ ... ومَتنٌ كَمَتنِ القَوسِ أَعوَجُ مُنْأَدُّ

طَواهُ الطَّوَى حَتَّى استمرَّ مريرُهُ ... فَما فيهِ إِلَّا العَظمُ والرُّوحُ والجِلدُ

سَما لي، وبي مِنْ شِدَّةِ الجُوعِ ما بِهِ ... بِبيداءَ لَمْ تُحَسَسْ بِها عيشَةٌ رغدُ

كِلانا بِها ذِئبٌ يُحدِّثُ نَفسَهُ ... بِصاحبِهِ، والجَدُّ يُتْعِسُهُ الجَدُّ

وفَورَ وصولِهِ إِلى بَغدادَ، لَقيَهُ «أَبو تَمَّام» وساعدَهُ عَلى تَأمينِ عيشٍ رَغيدٍ، وتَحقيقِ شُهرَةٍ واسِعةٍ بينَ النَّاسِ هُناكَ، فكانَ يَتردَّدُ إِلى مجالسِ الأُدباءِ، وإِلى المَجالسِ الَّتِي كانَتْ تُعقَدُ في بُيوتاتِ كِبارِ رِجالِ الدَّولَةِ في بَغدادَ والمُوصلِ، فَتعرَّفَ على الوزراءِ كَآلِ سَهلٍ، وأَولادِ حُميدٍ بنِ عبدِ الحميدِ الطُّوسيِّ، وتَوثَّقَتِ الصِّلةُ بينَهُ وبينَ كبيرِهِمْ «أَبي نَهشلٍ بنِ حُميدٍ»، وكانَ أَولادُ حُميدٍ شَعراءَ وأُدباءَ مِنْ ذَوي الوجاهَةِ والرِّياسَةِ في بِلادِ العراقِ.

ومِمَّا قالَهُ في مدحِ أَولادِ حُميدٍ:

بَنو حُميدٍ أُناسٌ في أَسيافِهِم ... عِزُّ الذَّليلِ وحَتفُ الفارسِ النَّجُدِ

لَهُمْ عزائِمُ رَأيٍ لو رَميتَ بِها ... عندَ الهياجِ نُجوم اللَّيلِ لَمْ تَقِدِ

لولا فِعالُهُمْ واللهُ كَرَّمَهُ ... لَماتَ ذِكرُ المَعالي آخِرُ الأَبدِ

ومِمَّا قَالَهُ في مَدحِ آلِ سَهلٍ، وهُما الفَضلُ والحَسنُ اللَّذانِ كانا مِنَ الوزراءِ ومِنْ أَعيانِ الرُّؤساءِ وأَبناءِ الزَّمانِ:

آلَ سَهلٍ أَنتُمْ غُيوثُ بَني ساسانَ ... جوداً ونَجدَةً وحُلوماً

وقالَ في مَدحِ «الحسنِ بنِ سهلٍ» الَّذِي خَصَّهُ بِالرِّعايَةِ والإِكرامِ وبِالتَّقديمِ عَلى غيرِهِ مِنَ الشُّعراءِ:

كَأَنَّ آراءَهُ والحزمُ يَتبَعُها ... تُريهِ كُلَّ خَفيٍّ وهوَ إِعلانُ

ما عابَ عَنْ عَينيهِ فَالقَلبُ يَكلَؤُهُ وإِنْ تَنَمْ عَينُهُ فَالقَلبُ يَقظانُ

وعندما تَولَّى «المُتوكِّلُ» الخلافَةَ صارَ «البحتريُّ» شاعرَ الدَّولَةِ الرَّسميَّ ولاقَى مِنْ وَزيرَيهِ «ابنِ الزَّياتِ» و«الفَتحِ بنِ خاقانَ» كُلَّ حَفاوَةٍ وإِكرامٍ واحترامٍ، كما لاقَى مِنَ الخليفَةِ ذاتِهِ كُلَّ إِطراءٍ ووِصالٍ وعطاءٍ، وبِالمُقابِلِ لَمْ يَبخَلْ هوَ في مَديحِهِمْ بِالقَصائِدِ الحِسانِ الَّتي خَلَّدتْ مَآثرَهُمْ وأَعمالَهُمْ.

❋ ❋ ❋

نالَ «البحتريُّ» مِنَ الهدايا والهِباتِ والجوائِزِ في عهدِ «المُتوكِّلِ»، ووَزيرِهِ «الفتحِ بنِ خاقانَ» ما لَمْ يَنَلْهُ أَحدٌ غيرُهُ مِنَ الشُّعراءِ، ولَمْ يَزَلْ في ظِلِّهِما مَحفوفاً بِالنَّعيمِ والجاهِ، حَتَّى مَقتَلِهِما أَمامَ عينيهِ ونجاتِهِ بِأُعجوبَةٍ، حيثُ استَطاعَ الهربَ مِنْ يَدِ الجُناةِ في ليلَةٍ ليلاءَ.

ولَكنَّهُ حملَ الحُزنَ والأَسَى في قَلبِهِ طوالَ حياتِهِ فَظَلَّ يَذكُرُهُما ويَرثيهما طوالَ حياتِهِ، وبِالتَّالي تَبدَّلَ الحالُ بَعدَهُما معَ «البحتريِّ» مِنْ حالَةِ الأَمنِ والاستقرارِ، إِلى حالَةِ الخَوفِ والحذَرِ والتَّشَتُّتِ الفكريِّ، حيثُ تَوالَى بَعدَ مقتلِ المُتوكِّلِ خَمسَةُ خُلفاءَ مِنْ بَني العبَّاسِ في مدَّةٍ وَجيزَةٍ، كُلُّ خليفةٍ عَدوٌّ لِلآخَرِ، وبِما أَنَّهُ شاعرُ الدَّولَةِ، كانَ عليهِ مجاراة الوضعِ، وإِرضاءَ الخُصومِ، ومُداراةَ ذَوي العَداواتِ والمُناوئينَ لَهُ داخلَ قَصرِ الخلافَةِ وخارِجه، وفي سَنةِ (892) ميلاديَّةً تَولَّى «المُعتَضِدُ» الخِلافَةَ، بَعدَ أَنْ أَصبَحَ الخليفَةُ يَحكمُ بِالاسمِ فَقَطْ، فَوجدَها «البحتريُّ» فُرصَةً لاعتزالِ مُحاباةِ ذَوي السُّلطانِ، ومُغادرةِ بَغدادَ ضارِباً

صَفحاً عَنْ حياتِها الصَّاخبَةِ بِالأَحداثِ الَّتِي لا تَجلبُ إِلَّا الهمومَ والمَتاعبَ، وعادَ منها إِلى مَسقَطِ رأسهِ «منبج»، تلكَ البَلدةِ الَّتِي لَمْ يَنسها، وكانَ خِلالَ حياتِهِ المُنَّعمَةِ في بَغدادَ يَحنُّ إِليها ويَذكُرها في شِعرِهِ كثيراً.

قَضَى «البحتريُّ» الأَيَّامَ الأَخيرَةَ مِنْ حياتِهِ في مَسقطِ رأَسِهِ حَتَّى أَدرَكتْهُ الوَفاةُ سَنةَ (897) ميلاديَّةً ولَهُ مِنَ العُمُرِ ثَمانينَ سنةً، ودُفِنَ هُناكَ، وما يَزالُ قَبرُهُ ماثِلاً، ويُعتَبرُ مِنْ أَهمِّ المَعالِمِ التَّاريخيَّةِ في منبج، ويَشهدُ عَلى مكانَتِها الهامَّةِ في تاريخِ العربِ والإِسلامِ.

كانَ «البحتريُّ» شاعراً مَوسوعيّاً كَأُستاذِهِ أَبي تَمَّامٍ، فَتركَ لَنا العَديدَ مِنَ الآثارِ وهيَ:

1 ـ ديوانُهُ: وهوَ ديوانٌ كبيرٌ أَطلَقَتْ عليهِ العربُ «سلاسلَ الذَّهبِ» لِما يَنضَحُ بِهِ شُعرُهُ مِنْ مَعانٍ وصورٍ ووصفٍ نادرٍ، ويَتألَّفُ مِنْ مَجموعَةٍ كبيرَةٍ مِنَ القَصائِدِ في عِدَّةِ آلافِ بيتٍ، ولَقَدْ قامَ فيلسوفُ الشُّعراءِ «أَبو العلاءِ المعري» بِشرحِهِ قَديماً وسَمَّاهُ «عبثَ الوليدِ».

2 ـ كتابُ الحَماسَةِ: ويَضمُّ مَجموعةً مِنْ أَشعارِ العربِ قامَ بِجَمعِها وتَصنيفِها بناءً على طلبِ الوزيرِ «ابنِ خاقان» وذَلكَ مُعارضَةً لِحماسَةِ أَبي تَمَّامٍ، وتَفوَّقَ فيها على أُستاذِهِ «أَبي تمَّامٍ» مِنْ حيثُ الانتقاءِ والتَّصنيفِ والتَّبويبِ، فَصَنَّفَ فيها لِنَحوِ سِتِّمئةِ شاعرٍ مِنَ الجاهليَّةِ وصدرِ الإِسلامِ.

3 ـ كتابُ معاني الشِّعرِ: لَمْ يَصلْ إِلينا، وإِنَّما أَشارَ إِليهِ المُؤرخونَ منذُ عصرِهِ.

جَمعَ «البحتريُّ» في شعرِهِ جميعَ أَغراضِ الشِّعرِ مِنْ وَصفٍ ورِثاءٍ ومَديحٍ وغزلٍ، وقدْ

كانَ مُقِلّاً في الهِجاءِ، ورُبَّما يَعودُ السَّببُ إلى ما أَوردَهُ الأَصفهانيُّ في «الأَغاني» مِنْ أَنَّ ابنَ البحتريِّ «أَبا الغَوثِ» يَزعمُ أَنَّهُ عندما أَدرَكَتْ والِدَهُ الوفاةُ قالَ لَهُ:

«اجمَعْ كُلَّ شَيءٍ قُلتُهُ في الهجاءِ، فَفَعلَ، فَأَمر بِإِحراقِهِ، ثُمَّ قالَ لَهُ: يا بُنيَّ، هذا شيءٌ قُلتُهُ في وَقتٍ فَشَفَيتُ بِهِ غَيظي، وكافَأتُ بِهِ قَبيحاً فَعلَ بي، وقَدِ انْقَضَى أَربي في ذَلِكَ، وإِنْ بَقيَ روي، ولِلنَّاسِ أَعقابٌ يُورِّثونَهُمُ العداوةَ والمَودَّةَ، وأَخشَى أَنْ يَعودَ عليكَ مِنْ هذا شَيءٌ في نَفسِكَ أَو مَعاشِكَ لا فائِدَةَ لي ولكَ فيهِ»، فَعملَ «أَبو الغَوثِ» بِنَصيحَةِ أَبيهِ وأَحرقَها.

❋ ❋ ❋

إِنَّ أَهمَّ قِسمٍ في شعرِ «البحتريِّ» هوَ ما قالَهُ في وَصفِ الطَّبيعَةِ مُتَمثِّلاً جمالَ الأَشياءِ وفِتنَتَها، ومِنَ الأَشياءِ الَّتِي أَجادَ الوَصفَ فيها: وَصفُهُ لِقَصرَي الخليفَةِ المُعتمدِ المَعشوقِ والمُشَوِّقِ، ووَصفُهُ «الزّاو» وهي السَّفينَةُ الَّتِي كانَ يَركبُها الخليفَةُ لِلنُّزهةِ، وعيونُ الماءِ الَّتِي أَقامَتها أُمُّ المُعتزِّ لِسقايَةِ الحجيجِ، وحروبُ الخليفَةِ «المُوَفَّقِ» وقُوَّادُهُ في ثورَةِ الزُّنجِ، ووَصفُهُ لأَطلالِ كِسرى عندما زارَها معَ ابنِهِ أَبي الغَوثِ، ووَصفُهُ لِبُركَةِ المُتَوكِّلِ، ووَصفُهُ لِكتابَةِ الوزيرِ «ابنِ الطَّاهرِ».

فَمِمَّا قالَهُ في وصفِ بُركةِ المُتوكِّلِ:

يا مَنْ رأَى البِركةَ الحسناءَ رُؤيَتَها ... والآنساتِ إِذا لاحَتْ مَغانيها

بِحَسبِها أَنَّها مِنْ فَضلِ رُتبَتِها ... تُعدُّ واحِدةً والبَحرُ ثانيها

كَـأنَّ جـنَّ سُـلـيـمـانَ الَّـذِيـنَ وَلـوا إِبـداعَـهـا فَـأَدقُّـوا فـي مـعـانـيـهـا
فَـلَـو تَـمـرُّ بِـهـا بَـلـقـيـسُ عَـنْ عـرضٍ قالَـتْ: هيَ الصَّرحُ تَشبيهاً وتَمثيلا

ويَقولُ واصِفاً كِتابَةَ الوزيرِ «ابنِ الطَّاهرِ»:

وبَـديـعٍ كَـأَنَّـهُ الـزَّهـرُ الـضَّـاحـكُ فـي رَونـقِ الـرَّبـيـعِ الـجـديـدِ
ومـعـانٍ لـو فَـصَّـلـتْـهـا الـقـوافـي هَـجَّـنَـتْ شـعـرَ جَـرولٍ ولـبـيـدِ
ورَكـبـنَ الـلَّـفـظَ الـقَـريـبَ فَـأَدرَكـنَ بِـهِ غـايَـةَ الـمُـرادِ الـبَـعـيـدِ
كَالعذارَى غَدونَ في الحُلَلِ الصُّفرِ إذا رُحـنَ فـي الـخُـطـوطِ الـسُّـودِ

وإنَّ ما يُمَيِّزُ وَصفَ «البحتريِّ» هو السَّلاسَةُ، والحرَكةُ النَّابِضَةُ في الصُّورِ والتَّشبيهاتِ، حتَّى قيلَ عَنْ شعرِهِ «سَلاسِلَ الذَّهبِ»، وما أَجملَ قولَهُ يَصفُ النُّجومَ وهيَ تُزيِّنُ السَّماءَ في فصلِ الرَّبيعِ:

كَأَنَّ النُّجومَ المُستسراتِ[1] في الدُّجى سِـكـاكُ دلاصٍ[2] أَو عـيـونُ جَـرادِ

ويَصفُ الشِّتاءَ عندَ انتِهائِهِ بِالشَّخصِ الخائِفِ الَّذِي يتسلَّلُ مُتنكِّراً مِنْ أَعينِ الرَّبيعِ:

سُـرعـانَ مـا وَلَّـى الـشِّـتـاءُ ولَـمْ يَـقِـفْ تَـسَـلُّـلَ شَـخـصِ الـخـائِـفِ الـمُـتَـنـكِّـرِ

والشِّعرُ عندَ «البحتريِّ» شُعورٌ وجدانيٌّ، ولَمحٌ خاطِفٌ لِلأَشياءِ يُراوِدُ الفِكرَ والخيالَ،

(1) المستسرات: المتخفيات.

(2) سكاك دلاص: الحلقات الدائرية الصغيرة التي تكونُ عَلى الدروع.

ويَعبرُ في النَّفسِ ثُمَّ يَمضي، وليسَ هوَ تكلُّفٌ عَقليٌّ، أَو تَفكيرٌ مَنطقيٌّ، ومَذهبُهُ في هذا مَذهبُ امرئِ القَيسِ إمامِ شعرِ الوَصفِ في الطَّبيعَةِ، ولعلَّ هذا ما يُميِّزُ البحتريَّ عَنْ شُعراءِ عَصرِهِ الَّذِينَ يُخاطِبُهُمْ في قولِهِ:

كَلَّفتمونا حدودَ مَنطِقِكُمْ ... في الشِّعرِ يَكفي عَنْ صِدقِهِ كذبُه

والشِّعرُ لَمحٌ تَكفي إِشارَتُهُ ... وليسَ بِالهذْرِ طُوِّلَتْ خُطَبُه

ولِهذا، خَتَمَ شُيوخُ العربيَّةِ، والمُؤرِّخونَ فَطاحِلَ شُعراءِ الإِسلامِ في العصورِ الإِسلاميَّةِ الأُولَى بِالبحتريِّ، قالَ أَبو الفَرجِ الأَصفهانيُّ: كانَ مَشايخُنا رحمةُ اللهِ عليهِمْ يَختمونَ بِهِ الشُّعراءَ.

وأَخيراً لا يَفوتُنا أَنْ نُشيرَ إِلى النَّزعَةِ القَوميَّةِ في فكرِ وشعرِ البحتريِّ، وهوَ يُواجهُ النَّزعَةَ الشُّعوبيَّةَ الَّتِي اسْتَشرَى خَطرُها، واسْتَفحلَ حِقدُها وشَرُّها عَلى العروبَةِ في عَصرِهِ، وما أكثرَ ذَلكَ في شعرِهِ!

كَمْ في بني الرُّومِ منْ أُعجوبَةٍ مثلِي ... وفي بَني العربِ مِنْ ذي نَجدةٍ بطلِ

إِنَّا بِأَسيافِنا، نَعلو أَكابِرَهُمْ ... قَسراً، وتَقتلُنا الولدانُ بِالمُقَلِ

الأَسْئِلَةُ وَالْمُنَاقَشَةُ

1 ـ ماذا نالَ وحازَ البحتريُّ مِنْ خلفاءِ بَني العبَّاسِ؟

2 ـ ماذا يُؤخَذُ عَلى البحتريِّ مِنْ مثالب؟

3 ـ إلى مَنْ يُنسَبُ البحتريُّ، ولِماذا سُمِّي بِالبحتريِّ؟

4 ـ لِماذا رحلَ البحتريُّ إلى حمصَ؟

5 ـ كيفَ عاملَ أَبو تمَّامٍ تلميذَهُ البحتريَّ؟

6 ـ على ماذا يَدورُ وَصفُ البحتريِّ في قَصيدتِهِ البائيَّةِ؟

7 ـ كيفَ أَصبحَ حالُ المُتوكِّلِ بَعدَ مقتلِ المُتوكِّلِ ووَزيرِهِ؟

8 ـ لِماذا قيلَ عَنْ شعرِ البحتريِّ أنه يُشبِهُ سَلاسلَ الذَّهبِ؟

أَبو الطيِّب المتنبِّي
سَاعرُ الحِكمة
(915 ـ 965م)

الحَمدُ للهِ رَبِّ العالمينَ، والصَّلاةُ والسَّلامُ عَلى سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ سَيِّدِ الأَنْبياءِ والمُرسلينَ، وبَعد:

أَعِزَّائي:

سَنَقرأُ في هَذِهِ الصَّفحاتِ اليَسيرَةِ قِصَّة شاعرٍ عربيٍّ، شغلَ الملوكَ والأُمراءَ والسَّلاطينَ بِشعرِهِ، وتَنافَسوا فيهِ أَيُّهُمْ يَنالُ شَرفَ امتثالِهِ في بِلاطِهِ، وأَيُّهُمْ يَنالُ حظوَةَ المَديحِ في شعرِهِ وكلماتِهِ.

وهذا الشَّاعرُ، سلبَ عقولَ المُلوكِ والأُمراءِ قبلَ أَنْ يَسلبَ عقولَ عامَّةِ النَّاسِ بِشعرِهِ وأَدبِهِ وفَنِّهِ، واسْتطاعَ أَنْ يُبرهِنَ لِلبَشريَّةِ أجمع، عَلى مرِّ العصورِ والدُّهورِ، أَنَّ مَنْ يَملكُ سِلاحَ الكلمَةِ لا تُشَقُّ لَهُ قَناةٌ، ولا تُنَكَّسُ لَهُ رايَةٌ، ويَبقَى اسمُهُ مُضاءً في سِجِلِّ العُظماءِ والخالدينَ حتَّى يَرثَ اللهُ الأَرضَ ومَنْ عليها، وكَذَلِكَ يَكونُ في حياتِهِ مُحاطاً بِالتَّوقيرِ والإِجلالِ والإِكرامِ مِنْ قِبلِ الآخرينَ، ولاسيَّما عندَ العربِ الَّذِيْنَ سَحرَتهُمُ البلاغَةُ

والفَصاحَةُ، وأَولَوا الشِّعرَ في حياتِهِمْ مكانَ الصَّدارَةِ بينَ العلومِ والفُنونِ، وأَعلَوا كثيراً مِنْ شَأنِ شُعرائِهِمُ المُجيدينَ، ومَنحوهُمُ الهَدايا والأُعطياتِ الثَّمينَةَ.

ومِنْ هذا المُنطلقِ، تَبوَّأَ شاعرُنا هذا مركزَ الصَّدارَةِ بينَ شُعراءِ العربِ الَّذِيْنَ اجتَذَبوا اهتمامَ المُلوكِ والأُمراءِ بِشعرِهِمْ، وتَرَبعَ عَلى قِمَّةِ مجدِ الشِّعرِ العربيِّ عَلى مرِّ الأَيَّامِ والعصورِ.

ولا يَفوتُنا أَنْ نُشيرَ إِلى أَنَّ هذا الشَّاعرَ حَملَ لِواءَ الدِّفاعِ والذَّودِ عَنْ حياضِ القَوميَّةِ العربيَّةِ في وَجهِ الشُّعوبيَّةِ الَّتِي ناوأَتِ العُروبَةَ في العصرِ العبَّاسيِّ، وحاوَلَتْ طَمسَ قيَمها ومُقوماتِها مُتَنكِّرَةً بِستارِ العاطفَةِ الدِّينيَّةِ، ومُستَغلَّةً دُخولَها في الإِسلامِ مِنْ أَجلِ ضَربِ وحدَةِ العربِ، والقضاءِ عَلى لُغَتِهِمْ، وعَلى ثَورَتِهِمُ الفكريَّةِ والعقائديَّةِ الَّتِي انطَلَقَتْ مِنْ جزيرَةِ العربِ للقضاءِ عَلى الظُّلمِ وتحريرِ الإِنسانِ مِنْ تَقديسِ الحجارَةِ والأَصنامِ وعبادَةِ الإِنسانِ لِلإِنسانِ، وتوحيدِ البَشرِ تحتَ لواءِ كلمَةِ الحقِّ والتَّوحيدِ.

فَوقفَ شاعرُنا هذا لِلنَّزعَةِ الشُّعوبيَّةِ المُناوئَةِ لِلقَوميَّةِ العربيَّةِ بِالمرصادِ، ورَشَقَها بِوابِلٍ مِنَ المعاني الفاضحَةِ لأَطماعِها الخَسيسَةِ، والمُبيِّنَةِ لِحقائِقِ مَراميها الخبيثَةِ في حياةِ العربِ آنذاكَ.

وفوقَ هذا وذاكَ، لَمْ يرَ هذا الشَّاعرُ موطئَ قَدمٍ لِرفعَةِ العروبَةِ وقيمها وأَمجادِها إِلَّا ثَبَّتَ قَدمَهُ فيهِ، وصالَ وجالَ في رِحابِهِ مُغرِّداً بِأَعذَبِ الأَلحانِ الشِّعريَّةِ عَلى أَوتارِ قَوافيهِ، طارباً الأَسماعَ، وراوياً الأَفهامَ، وها هوَ ذا يقولُ مُمَجِّداً أَصلَهُ العربيَّ، ومُتفاخراً بِعروبَتِهِ:

وإِنِّـي لَـمِـنْ قَـومٍ كَـأَنَّ نُـفـوسَـهُـمْ بِها أَنفٌ أَنْ تَسكُنَ اللَّحمَ والعظمَ

أَعرَفتُمُ الآنَ مَنْ يَكونُ هذا الشَّاعرُ الصَّادحُ بِالحكمَةِ، والنَّاثرُ لآلىءَ المَعاني في خَميلَةِ الشِّعرِ العربيِّ؟

إِنَّهُ «أَبو الطَّيِّبِ المتنبي»، شاعرُ الحكمةِ، وفارسُ الكلمَةِ الَّتِي لا يُشَقُّ لها غبارٌ، فَتعالوا معاً لِنقرأَ عبرَ هذِهِ السُّطورِ شَيئاً مِنْ حياتِهِ.

❋ ❋ ❋

يُنسَبُ «أَبو الطَّيبِ المتنبي» إِلى «كندَةَ» وهوَ حيٌّ في الكوفَةِ نزحَ إِليهِ المُهاجرونَ العربُ الَّذِيْنَ هُمْ مِنْ أَصلٍ يَمانيٍّ، واسمُهُ الحقيقيُّ «أَحمدُ بنُ الحُسينِ»، وهوَ مِنْ أَصلٍ عربيٍّ يَنتَهي إِلى كَهلانَ مِنَ القَحطانيَّةِ.

ولِدَ «أَبو الطَّيِّبِ المتنبي» في الكوفَةِ سَنةَ (915) ميلاديَّةً، ونَشأَ وتَرعرَعَ فيها، ومنذُ صغرِهِ ظَهرَتْ عليهِ عَلاماتُ النَّجابَةِ والذَّكاءِ، وكذلِكَ ظَهرَتْ ميولُهُ نَحوَ العلمِ والثَّقافَةِ والأَدبِ، ورغمَ الحالَةِ الاقتصاديَّةِ المُترديَّةِ الَّتِي كانَتْ تُعاني مِنها أُسرَتُهُ، حيثُ كانَ والدُهُ يَعملُ سَقَّاءً، لَمْ تَخبُ في نَفسِهِ نيرانُ شَوقِهِ لِلعلمِ والأَدبِ، كما عمدَ أَبوهُ إِلى تَوفيرِ كُلِّ أَسبابِ النُّبوغِ والنَّجاحِ لَهُ، فَأَرسَلَهُ إِلَى أَحدِ الكتاتيبِ المُنتشرَةِ في الكوفَةِ لِيَتَلقَّى العلمَ والمعرفَةَ عَلى يَدِ كبارِ علماءِ وأُدباءِ الكوفَةِ، وهذا ما مَكَّنه مِنْ مُخالطَةِ أَبناءِ النُّبلاءِ والفُضلاءِ والحُكَّامِ وأَربابِ السِّياسَةِ في عصرِهِ.

وبعدَ اطِّلاعِهِ عَلى أُصولِ العلمِ واللُّغةِ والبيانِ والشِّعرِ، وتَمكُّنِهِ مِنْ ذَلِكَ، انطلَقَ نحوَ الباديَةِ وهوَ لَمْ يَزَلْ حدثَ السِّنِّ، واختلطَ بِأَقوامِها مُستَزيداً منهُمْ أَساليبَ الفصاحَةِ واللُّغَةِ

والبيانِ، وساعدَهُ على ذَلِكَ ذَكاؤُهُ وقُوَّةُ ذاكرَتِهِ، وسُرعَةُ حفظِهِ لِما يَسمعُ أَو يَقرأُ، كما أَنَّهُ في تلكَ الفترةِ مِنْ عُمرِهِ كانَ يَختلِفُ إِلى الورَّاقينَ والنَّساخينَ في الكوفَةِ، ويَطَّلعُ عندهُمْ على المُصنفاتِ والمُؤلفاتِ ويَحفظُ منها.

ويذكرُ المُؤرِّخونَ عَنْ ذَكائِهِ وسرعَةِ حفظِهِ الغَرائِبَ والعجائِبَ، فَمِنْ ذَلكَ: أَنَّهُ حضرَ إِلى مجلسِ أَحدِ الورَّاقينَ يوماً، فَأَتَى رجلٌ يَحملُ بينَ يَديهِ كتاباً لِلأَصمعيِّ يُريدُ بيعَهُ، فَأَخذَ «المتنبي» الكتابَ مِنْ يَدِ الرَّجلِ، وراحَ ينظرُ إِليهِ بِتركيزٍ وإِمعانٍ مدَّةً طويلَةً حتَّى ضجرَ صاحبُ الكتابِ، وقالَ لِلمُتَنبيِّ:

ـ يا هذا، إِنَّني أُريدُ بيعَ الكتابِ، وقَدْ قَطعتني عَنْ ذَلِكَ. فَإِنْ كنتَ تُريدُ حفظَهُ، فَإِنَّ الوقتَ لا يَتَّسِعُ لِذَلِكَ.

فَبادرَهُ «المتنبي» قائِلاً: إِنْ كنتُ حفظتُهُ فَما لي عَليكَ؟

فَتعجَّبَ الرَّجلُ منهُ وقالَ: أَهبُ لكَ الكتابَ؟!

فَراحَ «المتنبي» يَتلو الكتابَ مِنْ ذاكرَتِهِ حَتَّى أَذهلَ الحاضرينَ، فَلَمْ يَجدِ الرَّجلُ مَندوحةً مِنْ وَهبِهِ الكتابَ كما وَعدَهُ.

❋ ❋ ❋

لَمْ يَكَدِ «المتنبي» يَبلُغُ السَّادسَةَ عشرَةَ مِنْ عُمرِهِ حَتَّى يَمَّمَ وَجهَهُ صَوبَ مدينَةِ بَغدادَ طلَباً لِمَزيدٍ مِنَ العلمِ والمعرفَةِ، حيثُ ضاقَتْ مدينَةُ الكوفَةِ عَنْ تلبيَةِ طُموحِهِ وتَوقِهِ الشَّديدِ إِلى الثَّقافَةِ والمعرفَةِ، وعَنْ رَغبَتِهِ العارِمَةِ لِلخَوضِ في مُعتَركِ الحياةِ الثَّقافيَّةِ والسِّياسيَّةِ

لِلعالَمِ العربيِّ والإِسلاميِّ آنذاكَ، وخاصَّةً أَنَّ العالَمَ العربيَّ والإِسلاميَّ كانَتْ تَعجُّ فيهِ الحركاتُ السِّياسيَّةُ المُتناحرَةُ والمُتنازعَةُ حينَها، ولَقَدْ وَعَى «المتنبي» على الدُّنيا وتَفتَّحَ إِدراكُهُ عليها لِيَشهدَ عَنْ كَثبٍ الَّتياراتِ الشّعوبيَّةَ المُناوئَةَ لِلقَوميَّةِ العربيَّةِ، تلكَ الَّتياراتُ الَّتي نَمَتْ وتَرعرعتْ تَحتَ سَمعِ وبَصرِ خلفاءِ بَني العبَّاسِ؛ لأَنَّ الخلفاءَ العباسيينَ اعتَمدوا عَلى العناصِرِ الأَعجميَّةِ في تَوطيدِ أَركانِ حُكمِهِمْ، وفي بَسطِ نُفوذِهِمْ على البِلادِ والعبادِ، ولَقَدْ وَجدَ «المتنبي» في نَفسِهِ كُرهاً شَديداً لِهذِهِ الحركاتِ الشُّعوبيَّةِ الَّتي استغَلَّتْ عاطفَةَ الدِّينِ، وتَقرُّبَها مِنَ الحُكَّامِ مِنْ أَجلِ ضَربِ العروبَةِ في عُقرِ دارِها، وكانَ لَها ما أَرادَتْ مِنْ تَمزيقِ الخلافَةِ إِلى دُويلاتٍ مُتناحرَةٍ ومُتحاربَةٍ.

وبِسَبَبِ الحياةِ السِّياسيَّةِ المُضطرِبَةِ لَمْ تطُلْ إِقامَةُ «المتنبي» في بَغدادَ، وخاصَّةً أَنَّهُ عُرفَ فيها بِشعرِهِ الفَصيحِ الَّذي بَهرَ أُولي الأَلبابِ، وأَيقظَ الهمَمَ لِلثَّورَةِ عَلى الأَوضاعِ والأَحوالِ الفاسدَةِ الَّتي تَعصفُ بِالبِلادِ، وتُوشِكُ أَنْ تلقيَ بِالأُمَّةِ بينَ براثِنِ الأَعداءِ الَّذِين يُحيطونَ بِها مِنْ كُلِّ حَدبٍ وصَوبٍ، فَوجدَ «المتنبي» نَفسَهُ مُضطَرّاً لِمُغادرَةِ بَغدادَ والاتِّجاهِ نَحوَ بِلادِ الشَّامِ، وفي طريقِهِ مَرَّ بِباديَةِ السَّماوَةِ، وكانَ في ذِهنِهِ مُخطَّطاً ثوريّاً، ونزَلَ في ضِيافَةِ أَميرِ طَبريَّةَ «بَدر بنِ عمَّار»، وقامَتْ بينَهما علاقَةُ ودٍّ وصداقَةٍ، ولا سيَّما أَنَّ «المتنبي» كانَ يَدخلُ القلوبَ والعقولَ بِطيبِ لِسانِهِ، وحُسنِ حديثِهِ، وجزالَةِ شعرِهِ، فَأَحبَّ النَّاسُ شَخصَهُ وشعرَهُ، وصارَتْ لَهُ شهرَةٌ واسِعةٌ بينَ عربِ الباديَةِ، ولكِنْ في الوَقتِ ذاتِهِ ظهرَ لَهُ حُسَّادُهُ الَّذِيْنَ نَكَّدوا عليهِ حياتَهُ واستقرارَهُ، ووَقفوا حجرَ عثرَةٍ في طريقِهِ وصدُّوهُ عَنْ تَحقيقِ طُموحِهِ وآمالِهِ، ويُقالُ: إِنَّهُ في تِلكَ الفترَةِ اعتنَقَ المذهبَ القُرمطيَّ، وتَشرَّبَ

مبادئَهُ، وتَحَلَّى بِالرُّوحِ الثَّوريَّةِ المُناهِضَةِ لِلأَوضاعِ السِّياسيَّةِ الفاسدةِ، وانطلَقَ نحوَ سَواحلِ بِلادِ الشَّامِ، وزارَ إنطاكيَّةَ واللَّاذقيَّةَ، وطابَ لَهُ المُقامُ في اللَّاذقيَّةِ، حيثُ رَحَّبَ بِهِ أَهلُها ولاقَى عندَ الأَميرِ التَّنوخيِّ الَّذِي كانَ يُلَقَّبُ بِـ «أَميرِ الجَماعَةِ» «مُحمَّدِ بنِ إِسْحَاقَ التَّنوخيِّ» كُلَّ حفاوَةٍ وتَكريمٍ وتَرحيبٍ، وقَدْ مَدحَهُ بِسَبعِ قَصائِدَ كانَتْ مِنْ روائِعِ شعرِهِ في المَديحِ، ولَمَّا توُفيَ «محمَّدُ بنُ إِسْحَاقَ التَّنوخيُّ» رَثاهُ «المتنبي» بِقصيدَةٍ كانَتْ مِنْ أَروعِ ما قيلَ في الشِّعرِ العربيِّ مِنْ قَصائِدِ الرِّثاءِ، قالَ فيها:

إِنِّي لأَعلَمُ، واللَّبيبُ خَبيرُ ... أَنَّ الحياةَ - وإِنْ حرصتَ - غُرورُ
ورأَيتُ كلاماً يُعلِّلُ نَفسَهُ ... بِتَعلَّةٍ، وإِلى الفَناءِ يَصيرُ
ما كُنتُ أَحسَبُ قبلَ دفنِكَ في الثَّرَى ... أَنَّ الكَواكبَ في التُّرابِ تَغورُ
خَرجوا بِهِ، ولُكلِّ باكٍ خَلفَهُ ... صَعقاتُ موسَى يومَ دُكَّ الطُّورُ
والشَّمسُ في كبدِ السَّماءِ مَريضَةٌ ... والأَرضُ واجفَةٌ تَكادُ تَمورُ
وحَفيفُ أَجنِحَةِ المَلائِكَةِ حولَهُ ... وعيونُ أَهلِ اللَّاذقيَّةِ صورُ
حَتَّى أَتَوا جَدَثاً كَأَنَّ ضَريحَهُ ... في قَلبِ كُلِّ مُوَحِّدٍ مَحفورُ

ويُقالُ: إِنَّهُ في اللَّاذقيَّةِ ادَّعَى النُّبوَّةَ، وهوَ لَمْ يَزَلْ في العشرينَ مِنْ عُمرِهِ، ولاقَى بينَ النَّاسِ مَنْ يُصَدِّقُهُ ويُؤمِنُ بِهِ، ومَنْ يَومِها سُميَّ بِـ «المتنبي»، علماً أَنَّ ادعاءَهُ النُّبوَّةَ لَمْ تَكُنْ سِوى طُرفة مِنْ طرائِفِ حياتِهِ.

لَكِنَّ والي حمصَ الإِخشيديَّ ألقَى القَبضَ عليهِ، وسَجنَهُ سَنتينِ، بِسَببِ ادِّعائِهِ النُّبوَّةَ،

وبِسَببِ ما يَبُثُّهُ بينَ النَّاسِ مِنْ آراء ثَوريَّةٍ ضِدَّ الحُكَّامِ والسَّلاطينِ ولا سيَّما الشُّعوبيينَ مِنهُمْ.

وهكذا طُويَتْ صَفحةٌ مِنْ حياةِ «المتنبي» مَليئةٌ بِالمُغامرَةِ والتّرحالِ، ونابِضَةٌ بِحياةِ الشَّبابِ، وروحُها الوثَّابَةُ نَحوَ تَحقيقِ الطُّموحِ والشُّهرَةِ، لِتبدأَ مَرحلَةٌ جَديدةٌ مِنْ حياتِهِ مَليئَةٌ بِالجَدِّ والعملِ.

❋ ❋ ❋

بَعدَ خُروجِهِ مِنْ سجنِ حمصَ، طفقَ «المتنبي» يَجوبُ الحَواضِرَ والبَوادي والمُدنَ باحِثاً عَنْ مُستَقَرٍّ لَهُ، لا يَكادُ يُقيمُ عندَ قَومٍ حَتَّى يَتركَهُم الى آخرينَ بِسَببِ الأَخطارِ الَّتِي تَعترضُ حياتَهُ، وهوَ الشَّاعرُ الثَّائِرُ الباحثُ عَنِ المجدِ والسُّؤدُدِ، والحالمُ بِمجدٍ عربيٍّ يُعيدُ لِلأُمَّةِ أَمجادَها المُشرقَةَ، ويُعيدُ الحقَّ إِلى أَهلِهِ الحقيقيينَ، وهمُ العربُ، بَعدَ أَنْ صارَتْ دولَتُهُمُ الواحدَةُ مُوَزَّعةً إِلى دويلاتٍ يَحكمُها أَجناسٌ ليسوا مِنَ العربِ، وإِنَّما مِنَ الموالي والفرسِ والعجمِ.

يَقولُ «المتنبي» واصفاً تِلكَ الصِّعابِ والأَخطارِ الَّتِي واجَهتْهُ آنذاكَ:

أَواناً في بيوتِ البَدوِ رَحلي ... وآونَةً عَلى فندِ البَعيرِ
أُعرضُ لِلرِّماحِ الصُّمِّ نَحْري ... وأَنصبُ حَرَّ وجهي لِلهجيرِ
وأسري في ظلامِ اللَّيلِ وَحدي ... كَأَني منه في قَمرٍ منيرِ

وكانَتِ الدَّولَةُ الحمدانيَّةُ الَّتِي قامَتْ في المُوصلِ وحلبَ وأنطاكيَّةَ الدَّولَةَ العربيَّةَ الخالِصَةَ في الخلافَةِ العبَّاسيَّةِ المُمَزَّقَةِ آنذاكَ.

وكانَ أَميرُ حلبَ ومُؤسِّسُ الدَّولَةِ الحمدانيَّةِ «سيفُ الدَّولَةِ» مُحبّاً لِلعلمِ والعلماءِ والأُدباءِ والشُّعراءِ ويَعجُّ بلاطُهُ بِالعُلماءِ والأُدباءِ القادمينَ مِنْ كافَّةِ أَنحاءِ العالمِ الإِسلاميِّ، وقَدْ سمعَ عَنْ شعرِ «المُتنبي» وعَنْ حكمَتِهِ، وكَذلِكَ عَن اعتزازِهِ وكبريائِهِ العربيِّ الَّذِي لا تَشوبُهُ شائِبَةٌ، فَأَرسَلَ إِليهِ يَعرضُ عليهِ الإِقامَةَ في حلبَ، فَشَرطَ «المتنبي» على الأَميرِ ما يَضمَنُ لَهُ كرامتَهُ عندَهُ، وأَنْ لا يَقولَ الشِّعرَ في مجلسِهِ إِلا وهوَ جالسٌ، فَلا يَقومُ بينَ يَديهِ كَبقيَّةِ العلماءِ والشُّعراءِ.

قبلَ الأَميرُ شروطَ الشَّاعرِ الحكيمِ والثَّائِرِ، فَأَقامَ «المتنبي» في حلبَ، وفي ظلِّ رعايَةِ أَميرِها لهُ مُدَّةً طويلَةً مِنَ الزَّمنِ أَنشدَ فيها أَجملَ أَشعارِهِ في وصفِ المعارِكِ والحروبِ، يُقاتِلُ في الحروبِ جَنباً إِلى جَنبٍ معَ الأَميرِ «سيفِ الدَّولَةِ» ضِدَّ الرُّومِ الَّذِيْنَ كانوا أَخطرَ قُوَّةٍ تُهدِّدُ العربَ والمُسلمينَ آنذاكَ، ووَجدَ «المتنبي» في شَخصِ «سيفِ الدَّولَةِ» ضالَّتَهُ المَنشودَةَ لِيَجعلَهُ موضوعاً لِشعرِهِ مُصوِّراً شَجاعتَهُ وإِباءَهُ العربيَّ، كما وجدَ «سيفُ الدَّولَةِ» في شَخصِ «المتنبي» ذَلكَ الشَّاعرَ الَّذِي يُخَلِّدُ بُطولاتِهِ ومَآثِرَهُ.

وفعلاً كانَ لِكُلٍّ منهما ما أَرادَ مِنْ صاحبِهِ، فَمدحَ «المتنبي» أَميرَ حلبَ بِروائِعَ خالدةٍ كانَتْ رافداً ثَريّاً لِلشِّعرِ العربيِّ الَّذِي يُفاخرُ بِالقوميَّةِ العربيَّةِ ويُمجِّدها، فَمِنْ ذَلِكَ ما قالَهُ وهو يَمدحُ «سيفَ الدَّولَةِ» في تَحقيقِ وحدَةِ العربِ وعِزَّتِهِمْ:

إذا العربُ العرباءُ رازَتْ نُفوسَها فَأَنتَ فتاها والمليكُ الحلاحلُ

أَطاعَتْكَ في أَرواحِها وتصَرَّفَتْ بِأَمـ ـرِكَ، والْتَفَّتْ عليكَ القَبائِلُ

ومِنْ كثرَةِ ما مدحَ «سيفَ الدَّولَةِ» بِالقصائِدِ الحسانِ الَّتِي طارَ ذِكرُها في الآفاقِ، ومَلأَتِ الدُّنيا وأَثارَتْ إِعجابَ النَّاسِ، صارَ لِلمُتنبي حُسَّادٌ ومُناوئونَ يُوغرونَ صدرَ «سيفِ الدَّولَةِ» عَليه، ويوشونَ إِليهِ الوشاياتِ الكاذِبَةَ عنهُ، حَتَّى ساءَتِ العلاقَةُ بينَ الأَميرِ وبينَ شاعرِهِ المُفَضَّلِ، فَغادرَ «المتنبي» حلبَ إِلى دمشقَ.

وفي هذِهِ الأَثناءِ، تَهافَتَتِ الدَّعواتُ مِنْ قبلِ الأُمراءِ والسَّلاطينِ والمُلوكِ في دَعوتِهِ لِلإِقامَةِ في بلاطِهِمْ طَمعاً بِمدحِهِ لَهُمْ وتَخليدِهِمْ بِشعرِهِ، بَعدَ أَنِ اكتسَبَ شعرُهُ في تلكَ الآونَةِ صِفَةَ العالميَّةِ، ولكنَّهُ آثرَ الذَّهابَ إِلى مصرَ والنُّزولَ عندَ حاكِمِها «كافور الإِخشيديِّ» بَعدَ تَلَقيهِ الدَّعوَةَ منهُ.

لَقَدْ كانَ «كافور» عبداً زنجيّاً تُوفيَ سَيِّدُهُ «مُحمَّدُ بنُ طَغجٍ» حاكمُ مصرَ عَنْ وَلَدٍ صَغيرٍ، فَتَكفَّلَ «كافور» خدمَةَ الوَلَدِ وريثِ الحُكمِ عنْ أَبيهِ، ولَكِنْ سُرعانَ ما انتَزعَ المُلكَ مِن ابنِ سَيِّدِهِ، واستَبدَّ بِهِ دونَهُ.

بالغَ «المتنبي» في مدحِ «كافور» طَمعاً بِولايَةٍ عَلى أَحدِ الأَمصارِ بِناءً عَلى وَعدِه لهُ بِذَلكَ، ولَكِنْ مَضَتْ سَنتانِ عَلى هذا الوَعدِ دونَ أَنْ يُحرِّكَ «كافور» ساكِناً أَو يَفي بِوعدِهِ. فَأَرادَ «المتنبي» مُغادرةَ مِصرَ، فَمَنعَهُ «كافور» وضَيَّقَ عليهِ الإِقامَةَ، وجعلَ عليهِ عيوناً تَرصُدُهُ في كُلِّ حركاتِهِ وسَكناتِهِ، فعلَ ذَلِكَ خوفاً مِنْ هجاءِ «المتنبي» لَهُ إِذا صارَ بعيداً عَنْ سُلطَتِهِ.

وفي أَحدِ الأَيَّامِ سَنحَت الفُرصَةُ «لِلمُتَنَبي» بِالهروبِ مِنْ مصرَ، فَخرجَ مِنها مُتَخفِّياً، وهوَ في طريقِهِ إِلَى العراقِ جاءَهُ عَرضُ «سيفِ الدَّولَةِ» لَهُ بِالعَودَةِ إِلى حلبَ، ولَكنَّه اعتذَرَ مِنهُ، ورفضَ العودَةَ إِلى حلبَ خَوفاً مِنَ الوشاةِ، وقالَ في ذَلِكَ:

وما عاقَني غيرُ خَوفِ الوشاةِ وإِنَّ الوشايَاتِ طُرقُ الكذِب

ثُمَّ صارَ يَتَنَقَّلُ بينَ العراقِ وبِلادِ فارس، وفي أَحدِ الأَيَّامِ بَينَما كانَ مُسافِراً مِنْ شيرازَ إِلى أَصبهانَ في بِلادِ فارس، اعترَضَ طَريقَهُ «فاتِكُ بنُ جبلٍ الأَسديُّ» معَ عِصابَةٍ لَهُ، وكانَ بينَهُ وبينَ «المتنبي» عداوةٌ شَديدَةٌ، بِسَببِ هجائه لِخالِ «فاتك» هجاءً لاذِعاً، وسمَّاهُ «ضبَّةَ» وهو نَعتٌ كانَتِ العربُ تَتَقَزَّزُ مِنهُ، مِنْ ذَلكَ:

ما أَنصَفَ القَومُ ضبَّةَ وأُمَّهُ الطَرطَبَّةَ

ودارَتْ بينَهُما مَعركةٌ حاميَةُ الوَطيسِ أَبلَى فيها «المتنبي» بَلاءً حَسناً، غيرَ أَنَّ الكثرَةَ تَغلبُ الشَّجاعةَ. فَلَمَّا أَيقَنَ «المتنبي» بِالهلاكِ لاذَ بِالفَرارِ حِفاظاً عَلى حياتِهِ، إِلَّا أَنَّ غُلامَهُ صَرخَ عليهِ قائِلاً: ويحَ نَفسي، أَلستَ القائِل:

الخيلُ واللَّيلُ والبيداءُ تَعرفُني والسَّيفُ والرُّمحُ والقرطاسُ والقلمُ؟

فَشعرَ «المتنبي» بِالحرجِ والخجلِ، فَعادَ مُسرِعاً إِلى الميدانِ، وقاتَلَ بِبسالَةٍ حتَّى قُتِلَ. وأُسدلَ السِّتارُ على حياتِهِ المليئَةِ بِالمُغامراتِ والمَسرَّاتِ والمحنِ والصِّعابِ.

كانَتْ وَفاتُهُ في شَهرِ رمضانَ سنةَ (354) هجريَّةً الموافقة لِسنةَ (965) ميلاديَّةً.

وحَفيٌّ بِهذا الشَّاعرِ الَّذِي ماتَ مَقتولاً، وآثرَ شعرَهُ عَلى حياتِهِ أَنْ نُسميَّهُ: «شاعرَ

الحكمةِ» لأَنَّنا لا نَقرأُ بيتاً مِنْ شعرِهِ إِلَّا ونجدُهُ يَشعُّ بِضياءِ الحكمَةِ، ومِنْ ذَلكَ قَولُهُ يُمجِّدُ الرَّأيَ والمَشورَةَ:

الرَّأيُ قبلَ شَجاعةِ الشُّجعانِ هُوَ أَوَّلٌ وهيَ المحلُّ الثَّاني
فَإِذا هُما اجتَمعا لِنَفسٍ حُرَّةٍ بَلغَتْ مِنَ العلياءِ كُلَّ مَكانِ
ولَرُبَّما طَعنَ الفَتَى أَقرانَهُ بِالرَّأيِّ قبلَ تَطاعُنِ الأَقرانِ

وما أَجمَلَ، وأَحكمَ قَولَهُ في مطلعِ قَصيدةٍ يَمدَحُ بِها «سيفَ الدَّولَةِ»:

عَلى قَدرِ أَهلِ العزمِ تَأتي العزائِمُ وتَأتي عَلى قَدرِ الكرامِ المَكارمُ
وتَعظُمُ في عينِ الصِّغارِ صِغارُها وتَصغَرُ في عينِ العظيمِ العظائِمُ

الأَسْئِلَةُ وَالْمُنَاقَشَةُ

1 ـ ماذا استطاعَ «المتنبي» أَنْ يُبرهنَ للبشريَّةِ؟

2 ـ ماذا حملَ «المتنبي»؟

3 ـ إلَى مَنْ يُنسبُ «المتنبي»، وأينَ ولدَ؟

4 ـ لِماذا نمَتِ التياراتُ الشُّعوبيَّةُ في العصرِ العباسيِّ؟

5 ـ لِماذا كانَ «المتنبي» يكرهُ الشُّعوبيَّةَ؟

6 ـ لِماذا طابَتِ الإِقامَةُ لِلمُتنبي في اللاذقيَّةِ؟

7 ـ ماذا شَرطَ «المتنبي» على سيفِ الدَّولَةِ؟

8 ـ لِماذا ضَيَّقَ كافور الإِقامَةَ في مصرَ على المتنبي؟

أَبو فراس الحَمدانيُّ
الشَاعرُ الأسِير
(932 ـ 968م)

الحَمدُ للهِ رَبِّ العالمينَ، والصَّلاةُ والسَّلامُ عَلى سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ سَيِّدِ الأَنْبياءِ والمُرسلينَ، وبَعد:

أَعِزَّائي:

سَنَقرأُ في هَذِهِ الصَّفحاتِ اليَسيرَةِ قِصَّةَ شاعِرٍ مِنْ شُعراءِ العَربِ وأَمرائِهِمُ المَشهورينَ مِمَّنْ جمَعوا بينَ مَجدِ السَّيفِ والقَلَمِ، وسَطَّروا لَنا في التَّاريخِ العَربيِّ المُشرِقِ البُطولاتِ والأَمجادَ، كَما سَطَّروا الشِّعرَ والأَدَبَ.

كانَ هذا الشَّاعِرُ كَريمَ الأَصلِ، شَريفَ المَنبَتِ، عَظيمَ الصِّفاتِ، شَديدَ الغِيرَةِ عَلَى وَطَنِهِ وأُمَّتِهِ، قَويّاً في الملَمَّاتِ، يَعظُمُ في نَفسِهِ الأَلَمُ فَيُصبحُ شُعوراً يَنبضُ بالإِبداع والفَنِّ والشِّعرِ.

أَجَل، لَقَدْ عانَى هَذا الشَّاعِرُ البَطلُ مِنَ الآلامِ ما تَعجَزُ عَنْ تَحَمُّلِها الجِبالُ الرَّاسياتُ،

وحَملَ حُزنَهُ في قَلبِهِ خَلفَ قُضبانِ سِجنِهِ، وبينَ جُدرانِ أَسرِهِ، كما يَحمِلُ التَّاريخُ بينَ دَفَّتيهِ وَيلاتِ الحُروبِ وفَواجِعَها.

فَكانَ رَجُلاً في أُمَّةٍ، وأُمَّةً في رَجلٍ. ومِنْ ثَمَّ أَتَى هَذا الشَّاعِرُ التَّليدُ عَلَى جَميعِ فُنونِ الشِّعرِ، مِنْ فَخرٍ ومَدحٍ وشَكوَى ورِثاءٍ وغَزَلٍ ووَصفٍ، إِتْيانَ الشَّاعِرِ الحاذِقِ، فَأَجادَ في شِعرِهِ وأَحسَنَ، وتَكَرَّمَ الشِّعرُ في حُضورِ هَذا الشَّاعِرِ بِقُوَّةٍ في سِجِلِّهِ وصَفحاتِهِ.

ومَنْ يَقرأُ هَذا الشَّاعِرَ يَجِدُ فيهِ سِماتِ الشُّعراءِ الجاهليينَ بِعنُفوانِهِمْ وفَخرِهِمْ وثورَتِهِمْ وآلامِهِمْ وأَحزانِهِمْ.

فَهَلْ أَدرَكتُمْ مَنْ يَكونُ هذا الشَّاعِرُ العَربيُّ التَّغلبيُّ؟

إِنَّهُ الشَّاعِرُ الشَّابُّ، والفارِسُ المُغوارُ، شاعِرُ الفُروسيَّةِ والبُطولَةِ والأَنينِ والشَّكوَى، الشَّاعِرُ الأَسيرُ، والأَميرُ النَّجيبُ، الشُّجاعُ المُهابُ «أبو فِراسٍ الحَمَدانيُّ».

فَتَعالوا مَعاً نَسْتَجلِي بِشَوقٍ عَميقٍ، ونَقرأُ بِعَقلٍ مُنيرٍ قِصَّةَ هذا الشَّاعِرِ الَّتي كانَتْ بِحَقٍّ مَلحَمَةً بُطوليَّةً زَيَّنَتْ تاريخَ الشِّعرِ العَربيِّ بِحضورِها البهيِّ في سُطورِهِ وصَفحاتِهِ.

❋ ❋ ❋

يَرجِعُ نَسَبُ أَبي فِراسٍ الحَمدانيِّ، إِلَى آلِ حَمدانَ، وهيَ أُسرَةٌ عَربيَّةٌ أَصلُها مِنْ قَبيلَةِ تَغلبَ، وسَكَنَت «المُوصِلَ»[1] واستَوطَنَتْ فيها بَعدَ الفَتحِ الإِسلاميِّ لِبلادِ فارس والعِراقِ في عَهدِ الخُلفاءِ الرَّاشدينَ رضي الله عنهم جَميعاً.

---

(1) مَدينَةُ الموصلِ ثاني أَكبرِ مُدنِ العراق وأكثرها أهمية بعد بغداد.

ولِدَ أَبو فِراسٍ الحَمدانيُّ في مَدينَةِ المُوصِلِ سَنَةَ (930) ميلاديَّةً، مِنْ أَبٍ عَرَبيٍّ اسمُهُ «الحارِثُ بنُ سَعيدِ بنِ حَمدانَ بنِ حَمدونَ»، ومِنْ أُمٍّ روميَّةٍ كانَتْ مِنَ السَّبايا أَعتَقَها أَبوهُ ثُمَّ تَزَوَّجَها، ولَمْ يُحَدِّثْنا التَّاريخُ شَيئاً عَنْ أُمِّهِ ولا عَنِ اسمِها غَيرَ ذَلِكَ.

وتَجدرُ بِنا الإِشارَةُ هُنا، أَنَّ عَلَى كاهِلِ «آلِ حمدَانَ» هذِهِ الأُسرَةِ العَربيَّةِ الكَريمَةِ قامَتِ الدَّولَةُ الحَمدانيَّةُ الَّتي أَسَّسَها «سَيفُ الدَّولةِ الحمَدانيُّ» في حَلبَ وامْتَدَّتْ فيما بَعدُ حَتَّى شَملَتِ المُوصلَ وحِمصَ وأَنطاكيَّةَ وبَعضَ المُدنِ الواقِعَةِ في الأَراضي التُّركيَّةِ، وتَكادُ تَكونُ الدَّولَةُ الحَمدانيَّةُ في ذَلِكَ العَصرِ الدَّولَةَ العَربيَّةَ الوَحيدَةَ التِّي قامَتْ بَعدَ تَمزُّقِ الخِلافَةِ العَباسيَّةِ إِلَى دُويلاتٍ وإِماراتٍ مُتناحِرَةٍ ومُتَدابِرَةٍ، وسَيطَرَ عَلَى أُمورِها أَفرادٌ مِنَ العَجمِ والمَوالي والفُرسِ والأَحباشِ.

أُلقِيَ عَلَى عاتِقِ هذِهِ الدَّولَةِ الحَميدَةِ، أَعباءُ الدِّفاعِ عَنِ الخِلافَةِ العَباسيَّةِ في بَغدادَ، وعَنِ الوجودِ العَربيِّ في المَنطِقَةِ ضِدَّ الخَطرِ الرُّومانيِّ البيزَنطيِّ في شَمالِ سوريَّةَ، وكَذَلِكَ الوقوف في وَجهِ الهَجماتِ الصَّليبيَّةِ عَلَى سَواحِلِ بِلادِ الشَّامِ، وبِالتَّالي ما كانَتْ حَياةُ الشَّاعِرِ أبي فِراسٍ الحَمدانيِّ إِلا جِهاداً في سَبيلِ اللهِ ودِفاعاً عَنِ العروبَةِ والإِسلامِ وحمايَةَ حُدودِ الدَّولَةِ الحَمدانيَّةِ شَمال حلبَ ومُقاوَمَةَ الخَطَرِ البيزَنطيِّ هُناكَ.

كَذَلِكَ كانَتِ الدَّولَةُ الحَمدانيَّةُ حِصناً مَنيعاً لِلقَوميَّةِ العَربيَّةِ في وَجهِ حَركَةِ العَجمَنةِ والشُّعوبيَّةِ الَّتي نَشَطَتْ وتَعاظَمَتْ في مَناطِقَ شَتَّى مِنْ بِلادِ العَربِ والإِسلامِ، حَتَّى يُقالَ: إِنَّها سَيطَرتْ عَلَى قَصرِ الخِلافَةِ العَباسيَّةِ في بَغدادَ ذاتِها.

أَعزَّائي وأَحِبائي، أَبنائي وبَناتي:

لَقَدْ قُدِّرَ لأَبي فِراسٍ الحَمدانيِّ أَنْ يَعيشَ يَتيماً مُنذُ السَّنواتِ الأُولَى مِنْ حَياتِهِ، حيثُ ماتَ أَبوهُ وهوَ لَمْ يَزَلْ في الثَّالِثَةِ مِنْ عُمرِهِ فَقَط، فَكَفلَهُ ابنُ عَمِّهِ «سَيفُ الدَّولَةِ الحَمدانيُّ» الَّذي كانَ مِنْ كِبارِ عُمَّالِ الخَليفَةِ العَباسيِّ، ومِنْ أَعظَمِ مُوَظَّفيهِ يَتَنَقَّلُ بينَ المُوصِلِ وحلَبَ وديارِ بَكرٍ.

وعِندَما لَمسَ سَيفُ الدَّولَةِ أَنَّ ضعفَ الخِلافَةِ العَباسيَّةِ باتَ أَمراً يُنذِرُ البِلادَ بِالخَطرِ استَقَلَّ بِإِمارَةِ حَلبَ مَعَ الاحتفاظِ بِالوَلاءِ الدِّيني والأَدبيِّ والسِّياسيِّ لِلخَليفَةِ العَباسيِّ في بَغدادَ، حالُهُ كَحالِ بَقيَّةِ الأُمراءِ الَّذينَ استقلوا عَنِ الخَليفَةِ وأَقاموا دُويلاتٍ في بَقيَّةِ المَناطِقِ والأَقطارِ.

فَعاشَ أَبو فِراسٍ في ظِلِّ رِعايَةِ ابنِ عَمِّهِ سيف الدولة مُحاطاً بِالعِزِّ والجاهِ، وكانَ يُواظِبُ عَلَى حُضورِ مَجلِسِه الَّذي كانَ يَعجُّ - يومَئذٍ - بِالعُلماءِ والأُدباءِ والشُّعراءِ.

وما أَنْ تَفَتَّحَ عَقلُ أَبي فِراسٍ، وقَوِيَ ساعِدُهُ حَتَّى صَحبَ ابنَ عَمِّهِ في غَزواتِهِ وحُروبِهِ مَعَ الرُّومِ البيزَنطيينَ، فَكانَ يَرتَجزُ الأَشعارَ مُسَجِّلاً البُطولاتِ والانْتِصاراتِ الَّتي يُحرزُها ابنُ عَمِّهِ عَلى أَعدائِهِ، الأَمرُ الَّذي أَثارَ إِعجابَ ابنِ عَمِّهِ بِهِ، فَأَقطَعَهُ ضَيعَةً في قَضاءِ منبج الواقِعَةِ شَمال حَلبَ، وسُرعانَ ما جَعلَهُ أَميراً عَلى منبج وحرَّانَ بَعدَها.

حملَ أَبو فِراسٍ المَسؤوليَّةَ الَّتي أَسنَدَها إِليهِ ابنُ عَمِّهِ بِشَرَفٍ وأَمانَةٍ، وقامَ بِها خيرَ قِيامٍ، فَكانَ يَدفَعُ عَنْ إِمارَتِهِ، وعَنِ البِلادِ خَطرَ الهَجماتِ الرُّومانيَّةِ مِنْ جِهَةِ مَنبِج، وكانَ

يَحمي الحُدودَ والثُّغورَ الواقِعَةَ شَمال حَلبَ، وحَقَّقَ الانتِصارَ تلوَ الانتِصارِ عَلَى الأَعداءِ، وكانَ يُسَجِّلُ كُلَّ ذَلِكَ شِعراً، عَلَى شَكلِ قَصائِدَ وأَراجيزَ.

ومِنْ ثَمَّ، كانَ قُوَّادُ الجُيوشِ الرُّومانيَّةِ البيزَنطيَّةِ يَحسَبونَ لَهُ أَلفَ حِسابٍ وحسابٍ، وكانُوا يَتَحَيَّنونَ الفُرصَةَ بَعدَ الفُرصَةِ لِقَتلِهِ أَو لأَسرِهِ.

❋ ❋ ❋

في إِحدَى الغَزواتِ وَقَعَ «أَبو فِراسٍ» الأَميرُ والشَّاعِرُ الشَّابُّ أَسيراً في أيدي الرُّومانِ سَنَةَ (909) ميلاديَّةً، وسَاقوهُ إِلَى سِجنٍ عَلَى الفُراتِ قُربَ مَدينَةِ مَلَطيَةَ التُركيَّةِ، ولَكنَّهُ استَطاعَ بِذَكائِهِ وخبرَتِهِ وشَجاعَتِهِ الفَرارَ مِنَ الأَسرِ، وعادَ سَالِماً إِلى إِمارَتِهِ.

غَيرَ أَنَّهُ لمْ يَمرَّ عَلَى ذَلِكَ فَترةٌ قَصيرَةٌ مِنَ الزَّمنِ حَتَّى وَقَعَ مرَّةً ثانيَةً أَسيراً في أَيدي الرُّومانِ وهوَ يَخوضُ حَرباً داميَةً مَعَهُمْ في أَحدِ الثُّغورِ، فَحمَلوهُ هذِهِ المَرَّةَ إِلى مَدينَةِ القُسطَنطينيَّةِ الّتي كانَتْ عاصِمَةَ إِمبراطوريَّتِهِمْ في تِلكَ الفَترَةِ مِنَ الزَّمنِ، وشَدَّدوا عَليهِ السِّجنَ هُناكَ، غَيرَ أَنَّهُمْ عامَلوهُ مُعامَلَةً حَسَنَةً وطَيِّبَةً تَليقُ بِمَنزِلَتِهِ كَأَميرٍ وشَاعرٍ.

ولَكِنْ طالَتْ عَليهِ ـ هَذِهِ المَرَّةُ ـ فَترَةُ الأَسرِ، وابنُ عَمِّهِ لا يَلتَفِتُ إِليهِ، ولا يُحَرِّكُ ساكِناً لِفدائِهِ أَو لفَكِّهِ مِنَ الأَسرِ. فعَمدَ أَبو فِراسٍ إِلَى إِرسالِ الرَّسائِلِ لِابنِ عَمِّهِ «سَيْفِ الدَّولَةِ» يَطلبُ مِنْهُ فيها الإِسْراعَ إِلَى فِدائِهِ مِنَ الأَسرِ، الرِّسالَةِ تِلوَ الأُخرَى. وكانَتْ رسائِلُهُ تَحملُ مَعَهُ عَذابَهُ وآلامَهُ، كَما كانَتْ تَحملُ في طَيَّاتِها شَوقَهُ وحَنينَهُ إِلَى الوَطَنِ والأَهلِ والأَصحابِ.

وعِندَما آنَسَ «أَبو فِراسٍ» مِنْ جانِبِ ابنِ عَمِّهِ «سَيفِ الدَّولَةِ» التَباطُؤَ والتَّقاعُسَ عَنْ فِدائِهِ وفَكِّهِ مِنَ الأَسرِ هَدَّدَهُ بِاللُّجوءِ إِلَى الغُرباءِ لِتَحقيقِ هذا المرامِ، فَسارَعَ الأَميرُ إِلَى فِدائِهِ وفَكِّهِ مِنَ الأَسرِ حينَها.

وهَكذا، عادَ إِلَى إِمارَتِهِ ووَطَنِهِ بَعدَ أَنْ مَرَّتْ عَليهِ سِتُّ سَنواتٍ وهوَ يَرزَحُ تَحتَ وَطأَةِ الأَسرِ، ذاقَ خِلَالَها مِنَ اللَّوعَةِ، وعانَى فيها مِنَ الآلامِ، ما لا يَصفُهُ الواصِفُ، ولا يَخطُرُ في بالٍ.

وخلَالَ أَيَّامِ أَسرِهِ أَجادَتْ قَريحتُهُ الشِّعريَّةُ بِأَجملِ نَفحاتِ الشِّعرِ العربيِّ الَّذي يُصوِّرُ فيهِ جلدَهُ وصبرَهُ عَلى الآلامِ المُبرحةِ، خَلفَ قُضبانِ سجنِهِ، وبينَ جدرانِ أَسرِهِ، عندَما كانَ يَأخذُهُ الشَّوقُ والحنينُ إِلَى الأَهلِ والوَطنِ.

وقَدْ أُطلِقَ على هذِهِ الأَشعارِ الَّتي نظمَها خلالَ أَسرِهِ في بِلادِ الرُّومِ «الرُّومياتِ» تَمييزاً لَها عما قالَهُ خارجَ فترَةِ أسرِهِ.

وفي سَنةِ (967) ميلاديَّةً، تُوفيَ أَميرُ حلبَ «سيفُ الدَّولَةِ الحمدانيُّ»، وخلفَهُ ابنُهُ «أَبو المعالي» «سَعدُ الدَّولَةِ»، وكانَ وزيرُهُ مَوليً لأَبيهِ يُدعَى «قَرغَويه» كانَتْ بينَهُ وبينَ «أَبي فراسٍ» عداوَةٌ قديمَةٌ، فَأَخذَ «قَرغويه» يوغرُ صَدرَ «سَعدِ الدَّولَةِ» عَلى «أَبي فراسٍ»

فَلَمَّا علِم «أَبو فراسٍ» بِذلِكَ، فَكَّرَ بالانتقامِ مِنْ الاثنينِ مَعاً. وأَرادَ ضَمَّ إِمارَةِ «حمصَ» إِلَى إِمارَتِهِ، وخاصَّةً عندَما أَدركَ ضعفَ نفوذِ «سَعدِ الدَّولَةِ»، وسَيطرَةَ وزيرِهِ «قَرغويه» عَلى قَراراتِهِ، وعَلى مقاليدِ حُكمِهِ، فَعزمَ الخروجَ بِجيشِهِ للاستيلاءِ عَلى «حمصَ»، فَلَّما علِمَ

«سَعدُ الدَّولةِ» ووَزيرُهُ بِذَلِكَ، قاما بِإعدادِ جيشٍ عَرمرمٍ لِصَدِّ «أَبي فراسٍ» ومنعِهِ مِنَ الوصولِ إلى «حمصَ»، والسَّيطرةِ عَليها.

خَرجَ جيشُ أَميرِ حلبَ بِقيادَةِ الوَزيرِ «قرغويه» النَّاقِمِ عَلى «أبي فراسٍ»، وجرَتْ بينَ الفريقينِ حربٌ طاحِنةٌ، خاضَ فيها «أَبو فراسٍ» معركَةً غيرَ مُتكافِئَةٍ، ولَمْ يَكُنْ مُستَعِدّاً لها، أَو يَحسَبُ لَها حُساباً، وقُضيَ فيها عَلى جيشِهِ عَنْ بُكرَةِ أَبيهِ، وقَدْ أَظهَرَ «أَبو فِراسٍ» مِنَ البطولَةِ والإقدامِ فيها ما يَعجَزُ عَنْ بَذلِهِ عِدَّةُ فُرسان مُجتمعينَ.

وسقَطَ «أبو فراسٍ» عَلى أَرضِ المَعركَةِ مُضَرَّجاً بِدمائِهِ في الرَّابعِ مِنْ نيسانَ سَنَةَ (968) ميلاديَّةً ولَهُ مِنَ العُمرِ ثَمانٌ وثَلاثونَ عاماً فَقَطْ.

قُتِلَ وهوَ في ريعانِ شَبابِهِ، وهوَ في قِمَّةِ عَطائِهِ الفِكريِّ والسِّياسيِّ والنِّضاليِّ، وبعدَ عمرٍ قَصيرٍ قَضاهُ مُجاهِداً في سبيلِ اللهِ، وفي الذَّودِ عَنْ حياضِ أُمَّتِهِ وبِلادِهِ.

ورَوى الرُّواةُ أَنَّ آخرَ ما نَطقَ بِهِ مِنْ شعرٍ، ما كتبَهُ إِلى ابنَتِهِ الوَحيدَةِ يُوصيها بِالصَّبرِ والتَّجمُّلِ:

أَبُنَيَّتي، لا تَحزَني ... كُلُّ الأَيَّامِ إِلَى ذَهابِ
أَبُنَيَّتي، صَبراً جَميلاً ... لِلجليلِ مِنَ المُصابِ
نُوحي عليَّ بِحسرَةٍ ... مِنْ خلفِ سترِكِ والحجابِ
قُولي إِذا ناديتِني، ... وعييتُ عَنْ ردِّ الجوابِ
زَينُ الشَّبابِ أَبو فراسٍ ... لَمْ يُمَتَّعْ بِالشَّبابِ

ماتَ «أَبو فراسٍ» تارِكاً وراءَهُ آلاماً وحسراتٍ عَلَى شاعرٍ كانَ طفرَةً في تاريخِ الشِّعرِ العربيِّ، وظاهرَةً لَنْ تتكرَّرَ أَبداً؛ لأَنَّهُ تَميَّزَ بِسجايا وصِفاتٍ انعَكَسَتْ في شِعرِهِ، ووَسمتْهُ بِخصوصيَّةٍ نادرَةٍ، يَصعبُ عَلى الزَّمانِ أَنْ يَجودَ بِمثلِها.

ترك لنا ديواناً شعريّاً جَمعَهُ لَهُ بَعدَ مَقتلِهِ أُستاذُهُ «ابنُ خالَويه» يَتألَّفُ مِنْ عِدَّةِ قَصائِدَ فَريدةٍ مِنْ نَوعِها، فيها مِنَ الموسيقَى الحيَّةِ ما يَجعلُنا نَستَحضِرُ عندَ سَماعِها أَو قراءَتِها عذابَهُ وآلامَهُ وأَنينَهُ وحَنينَهُ وشَكواهُ.

❋ ❋ ❋

إِنَّ أَهمَّ قسم في أَشعارِ «أَبي فراسٍ» هيَ تِلكَ التي تُسَمَّى بـ «الرُّومياتِ» الَّتي كَتبَها خِلالَ أَسرِهِ، وأَبرَقَ بِها إِلى ابنِ عمِّهِ «سيفِ الدَّولةِ»، وإِلى أُمِّهِ يُوصيها بِالصَّبرِ والجَلدِ، قالَ يَصفُ آلامَهُ:

مُصابي جليلٌ والعزاءُ جميلٌ ... وظَنِّي بِأَنَّ اللهَ سَوفَ يُديلُ
جراحٌ وأَسرٌ واشتياقٌ وغُربَةٌ ... أُحمَّلُ إِنِّي بَعدَها لَحمولُ
أُقلِّبُ طرفي لا أَرى غيرَ صاحبٍ ... يَميلُ معَ النَّعماءِ حيثُ يَميلُ
وصِرْنا نَرى أَنَّ المُتارِكَ مُحسنٌ ... وأَنَّ صديقاً لا يَضرُّ خَليلُ

وقالَ يَصفُ مُناجاتَه لِحَمامَةٍ وَقَفَتْ قَريباً مِنهُ تَنوحُ عَلى شَجرةٍ، تَطلُّ لَهُ مِنْ نافِذَةِ سجنِهِ:

أَقولُ وقَدْ ناحَتْ بِقُربي حمامَةٌ ... أَيا جارَتا هَلْ تَشعرينَ بِحالي

أَيا جارتا ما أَنصَفَ الدَّهرُ بينَنا تَعالي أُقاسِمْكِ الهُمومَ تَعالي
تَعالي تَرَي رُوحاً لَديَّ ضَعيفَةً تَرَدَّدُ في جسمٍ يُعَذَّبُ بالِ
قَدْ كُنتُ أَولى منكِ بِالدَّمعِ مُقلَةً ولَكنَّ دمعي في الحَوادثِ غالِ

وقالَ لأُمِّهِ يُوصيها بِالصَّبرِ، وبِتسليمِ أَمرِها إِلى اللهِ:

يا أُمَّتا، لا تَحزني وثِقي بِفضلِ اللهِ فيَّه
يا أُمَّتا، لا تَيأَسي للهِ أَلطافٌ خَفيَّه
أوُصيكِ بِالصَّبرِ الجميـ ـلِ فَإِنَّهُ خيرُ وَصيَّه

وكتبَ إِلى ابنِ عَمِّهِ «سيفِ الدَّولَةِ» يَصفُ لَهُ عدمَ احتمالِهِ للذُّلِّ والهوانِ وهوَ مَعَ رُفقائِهِ يَرزحُ في أَغلالِ الأَسرِ:

أقلِّبُ طرفي بينَ خلٍّ مُكَبَّلٍ وبينَ صَفيٍّ بِالحديدِ مُصَفَّد
دَعوتُكَ والأَبوابُ تُرتَجُ بينَنا فَكُنْ خيرَ مَدعوٍّ، وأَكرَمَ مُنجِدِ

وكتبَ إِليهِ يُعاتبُهُ كيفَ يَرضَى بِالنَّعيمِ وهوَ في شَقاءِ الأَسرِ:

تِلكَ المَوَدَّاتُ كيفَ تَهمِلُها؟ تِلكَ المَواعيدُ كيفَ تُغفِلُها؟
أَينَ المعالي الَّتي عُرفتَ بِها تَقولُها دائِماً وتفعَلُها؟
يا ناعِمَ الثَّوبِ كيفَ تُبَدِّلُهُ؟ ثِيابُنا الصُّوفُ ما نُبَدِّلُها!

❋ ❋ ❋

اهتَمَّ «أبو فراسٍ» في شِعرِهِ بِالصَّديقِ والصَّداقَةِ، وأَولاها في أَشعارِهِ كُلَّ اهتمامٍ ورِعايَةٍ وحفظٍ وصونٍ، وكثيرةٌ هيَ رسائِلُ الصَّداقَةِ الَّتي أَرسَلَها إِلى أَصدقائِهِ وأَصحابِهِ وخُلَّانِهِ.

كتبَ يَوماً إِلى صديقٍ لَهُ يُدعَى بِـ «أبي الحُصينِ القاضي»:

يا طولَ شَوقي إِنْ كانَ الرَّحيلُ غَداً ... لا فَرَّقَ اللهُ فيما بينَنا أَبداً

يا مَنْ أُصافيه في قُربٍ وفي بُعدٍ ... ومَنْ أُخالِصُهُ إِنْ غابَ أَو شهدا

راعَ الفراقُ فُؤاداً كُنتَ تُؤنسُهُ ... وذَرَّ بينَ الجفونِ الدَّمعَ والسُّهدا

لا يُبعدُ اللهُ شَخصاً لا أَرى أُنساً ... ولا تَطيبُ لي الدُّنيا إِذا بَعُدَا

وأَرسَلَ إِلى نَسيبِهِ «أَبي العشائِرِ» وقَدْ أَسرَهُ الرُّومُ:

لَذيذُ الكَرى حَتَّى أَراكَ مُحرَّمُ ... ونارُ الأَسَى بينَ الحشا تَتَضَرَّمُ

وأَتركُ أَنْ أَبكي عليكَ تَطَيُّراً ... وقلبي يَبكي والجوانحُ تَلطمُ

ويَقولُ «أَبو فراسٍ» مُفتَخراً بِلُطفِ مُعاملَتِهِ لِصَديقِهِ:

وإِذا وُجِدتُ معَ الصَّديقِ شَكوتُهُ ... سرّاً إِليهِ وفي المَحافِلِ أَشكرُ

ويَقولُ مُفتَخراً بِصبرِهِ على الصَّديقِ في زلَّتِهِ:

يَجني عليَّ فَأَحنو صافِحاً أَبداً ... لا شَيءَ أَحسُنَ مِنْ صافحٍ عَلى جانِ

ويَقولُ مُفتَخراً بِتَرفُّعِهِ عَنِ الدَّنيَّةِ:

إذا مـا الـعزُّ أَصبَـحَ فـي مـكـانٍ	سَـمـوتُ لَـهُ وإنْ بَـعُـدَ الـمَـزارُ
أَبَـتْ لـي هـمَّـتي وغِـرارُ سَـيـفـي	وعَـزمـي والـمَـطـيَّـةُ والـقِـفـارُ
ونَـفـسٌ لا تُـجـاورُهـا الـمَـنـايـا	وعِـرضٌ لا يَـرِفُّ عـلـيـهِ عـارُ

فَرحمَ اللهُ «أبا فراسٍ»، فَكَمْ عانَى! وكَمْ كابَدَ مِنْ آلامٍ وعذابٍ وشَقاءٍ!

وإِنَّها لَحقيقَةٌ ما قالَهُ عَنْ نَفسِهِ:

زيـنُ الـشَّـبـابِ أَبـو فـراسٍ	لَـمْ يُـمَـتَّـعْ بِـالـشَّـبـابِ

الأَسْئِلَةُ وَالْمُنَاقَشَةُ

1 ـ إِلَى مَنْ يرجعُ نسبُ أَبي فراسٍ؟

2 ـ ماذا أُلقيَ على عاتقِ الدَّولَةِ الحمدانيَّةِ؟

3 ـ ماذا كانَ يَعملُ سيفُ الدَّولةِ قبلَ استقلالهِ بِإِمارَةِ حلبَ؟

4 ـ ماذا كانَ يَفعلُ أبو فراسٍ أثناءَ صُحبتِهِ لِابنِ عمِّهِ في حروبِهِ؟

5 ـ كيفَ حملَ أبو فراسٍ المسؤوليَّةَ الَّتي أَسندَها إِليهِ ابنُ عَمِّهِ؟

6 ـ كيفَ عاملَ الرُّومانُ أَبا فراسٍ في الأَسرِ، ولِماذا؟

7 ـ ماذا فعلَ أَبو فراسٍ عندَما تباطأ سيفُ الدَّولَةِ في فَكِّهِ منَ الأَسرِ؟

8 ـ لِماذا قَرَّرَ أَبو فراسٍ ضَمَّ إِمارَةِ حمصَ إِليهِ؟

أَبو العلاءِ المعريُّ
فيلسوفُ الشُّعراء
(973 ـ 1058م)

الحَمدُ للهِ رَبِّ العالمينَ، والصَّلاةُ والسَّلامُ عَلى سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ سَيِّدِ الأَنْبياءِ والمُرسلينَ، وبَعد:

أَعِزَّائي:

سَنَقرأُ في هَذِهِ الصَّفحاتِ اليَسيرَةِ قِصَّة شاعرٍ عربيٍّ مُجيدٍ، شاعرٍ ليسَ كَالشُّعراءِ في فَنِّهِ وإِبداعِهِ فيما تَناولَهُ في شعرِهِ مِنْ مواضيعَ وأُمورٍ، وهوَ شاعرٌ لَمْ يَسعَ بِيديهِ إلى فُنونِ الشِّعرِ وفُتونِهِ، وإِنَّما جاءَهُ الشِّعرُ يَمشي على رجليهِ بِكُلِّ قُوَّتِهِ وعُنفوانِهِ، وحَطَّ رِحالَهُ في مَخيلَتِهِ الحَيَّةِ والخَصبَةِ، ثُمَّ خَرجَ الشِّعرُ مِنْ فكرِهِ، ومِنْ بناتِ خيالِهِ بِحلَّةٍ بَهيَّةٍ جميلَةٍ يَصعُبُ عَلى الشُّعراءِ المُجيدينَ نَسجُ مِثلِها بِكُلِّ ما أُوتوا مِنْ قُوَّةِ الفِكرِ والخيالِ والتَّعبيرِ، وبِكُلِّ ما وسعوا نيلَهُ مِنْ فُنونِ اللُّغةِ وبلاغَتِها وجزالَتِها.

ولعلَّ التَّجربَةَ القاسيَةَ الَّتي عاشَها شاعرُنا هذا منذُ نعومَةِ أَظفارِهِ، قَدْ صَقلَتْ مواهِبَهُ الفكريَّةَ والعقليَّةَ، وفَتَحَتْ مَدارِكَهُ عَلى أُمورٍ وحَقائقَ لَمْ يَعِها كِبارُ الشُّعراءِ قَبلَهُ.

لَقَدْ رَشفَ هذا الشَّاعرُ مِنْ رَحيقِ العلمِ، وجابَ في أَفانينِهِ الرَّغيدَةِ، وعبَّ مِنْ ثِمارِهِ الطَّيِّبَةِ، وهوَ جَديُّ المَسعَى، متينُ الإِرادَةِ، قَويُّ التَّصميمِ والتَّحصيلِ.

كانَ يَقصدُهُ العُلماءُ والشُّعراءُ لِيَسمعوا مِنهُ، وهوَ لَمْ يَزَلْ صَبياً لَمْ يَشُبَّ عَنِ الطَّوقِ بَعدُ. وشاعرُنا هذا لَهُ القَدحُ المُعَلَّى بينَ شُعراءِ العربِ ـ مَنْ كانوا قبلَهُ ومَنْ أَتَوا بَعدَهُ ـ في طَرقِ حقائِقِ العيشِ والمعاشِ، وفي تَفنيدِ مُشكلاتِ الحياةِ، فَأَتى شعرُهُ ناقِداً لأَمراضِ المُجتَمعِ، كاشِفاً لِعيوبِهِ، وساعياً لِإِصلاحِها بِصدقٍ وعفويَّةٍ ووضوحٍ، ولأَجلِ هذا لَمْ يَتَزَلَّفْ إلى الحُكَّامِ والأَغنياءِ يَوماً، ولَمْ يَسعَ لِتَحقيقِ مآرِبِهِ ومصالحِهِ الشَّخصيَّةِ، ولَمْ يَكُنْ مُتجانِفاً إلى فِئَةٍ مِنَ النَّاسِ، أَو يُغلِّبُ مَذهباً على آخرَ، وإِنَّما كانَ جُلَّ همِّهِ الحقيقَةُ المثاليَّةُ، والفضيلَةُ المُطلَقَةُ، المُنزهتانِ عَنِ الغاياتِ والمَآربِ الشَّخصيَّةِ.

أَجلَّ شاعرُنا هذا، إِصلاحَ أَخلاقِ النَّاسِ، كُلِّ النَّاسِ مهما كانَ شَأنُهُمْ، ومَهما عَلَتْ منزلَتُهُمْ أَو دَنَتْ، وكانَ يَرى أَنَّ فَسادَ أَخلاقِ العُلماءِ ـ علماءِ الدِّينَ خاصَّةً ـ الَّذينَ يَتزَلَّفونَ إلى الحُكَّامِ وإلى ذوي الأَمرِ، ويَتواضعونَ لِلأَغنياءِ، ويَتَكبَّرونَ عَلى الفُقراءِ مِنْ أَجلِ مصالِحِهِمْ ومنافِعِهِمُ الخاصَّةِ، هيَ الطَّامَّةُ الكُبرَى الَّتي تُصيبُ الحياةَ، وتَرمي المُجتمَعَ بِالعللِ والأَمراضِ الَّتي يَتطايَرُ شَرَرُها فَيُصيبُ عقولَ العَامَّةِ، ثُمَّ يُرديهِمْ في المَهالِكِ والمحنِ والفِتنِ.

لِهذا، لَمْ يَسلَمْ شاعرُنا هذا مِنَ الاتِّهاماتِ في دينِهِ وعقلِهِ وعَقيدَتِهِ، فَرماهُ بَعضُهُمْ

بِالزَّندقَةِ والإلحادِ، جهلاً وحقداً وحسداً، وهوَ ـ في الحقيقَةِ ـ أَقربُ إِلى اللهِ منهُمْ في نقاءِ العقيدةِ، وصدقِ الإيمانِ، وبِالرِّضا والتَّسليمِ بِقضاءِ اللهِ وقَدرِهِ.

أَضِفْ إِلَى ذَلِكَ كُلِّهِ، أَنَّهُ كانَ ذا فِكرٍ نافذٍ، ونَظرَةٍ ثاقبَةٍ، وفَلسفَةٍ مُتأَمِّلةٍ في الكونِ والحياةِ واللهِ والإنسانِ، سَلَّ سيفَهُ الشِّعريَّ لِيَقطَعَ بِهِ دابرَ مظاهرِ الجهلِ والتَّخلُّفِ والنِّفاقِ الَّذي راجَتْ بِضاعَتُهُ في عَصرِهِ، وكانَ يَكرَهُ التَّطرُّفَ في الفِكرِ والدِّينِ، ويَنتَقِدُ التَّمذهبَ الطَّائفيَّ، ويَرى أَنَّ أَربابَ الدّياناتِ بِجهلِهِمْ وضَحالَةِ فكرِهِمْ، وقلَّةِ وعيِهِمْ، يُكرِّسونَ قيمَ الجهلِ والطَّائفيَّةِ في عُقولِ العامَّةِ. ولهذا صَبَّ لِجامَ غَضَبِهِ عليهِمْ، وفي رأيِهِ، أَنَّهُمْ لو عرفوا اللهَ حَقَّ معرفَتِهِ لَما اختلَفوا فيهِ، فمعرفَةُ اللهِ عندَهُ تحرِّرُ الإنسان مِنَ الجهلِ والتَّخلُّفِ، والإيمانُ الصَّادقُ بِاللهِ يَتكرَّسُ بِمحبَّةِ البَشَرِ لِبَعضِهِم البَعض طالَما أَنَّهُمْ جميعاً يَسلكونَ الطَّريقَ المُوصِلَ إِلى اللهِ بِصدقٍ وإِخلاصٍ.

ولِهذا، كانَ حَفيٌّ بِهذا الشَّاعرِ أَنْ يُطلَقَ عليهِ «فيلسوفَ الشُّعراءِ».

أَتعلمونَ مَنْ يَكونُ هذا الشاعرُ؟ إِنَّهُ «أَبو العلاءِ المَعريُّ» الَّذي سَمَّى نَفسَهُ في حياتِهِ «رهينَ المحبسينِ»، فَتعالوا معاً لِنقترِبَ مِنْ حياتِهِ قليلاً عبرَ هذِهِ السُّطورِ.

❋ ❋ ❋

يُنسَبُ «أبو العَلاءِ المَعريُّ» إِلى بَلدَةِ «مَعرَّةِ النُّعمانِ» الواقِعَةِ شمال سوريا، بينَ مدينَتي حمصَ وحلبَ، وكانَتْ في ذَلِكَ الزَّمنِ عبارَةً عَنْ قَريَةٍ صَغيرَةٍ تَعيشُ فيها بَعضُ الأُسرِ العربيَّةِ، وسُمِّيَتْ بِـ «معرَّةِ النُّعمانِ» نسبَةً إِلى الصَّحابيِّ الجليلِ «النُّعمانِ بنِ بشيرٍ

الأَنصاريِّ» ﷺ الَّذي كانَ والياً عَلى حمصَ وقنسرينَ أَيَّامَ حُكمِ الخَليفَةِ الأُمويِّ «معاويَةَ بنِ أَبي سَفيانَ» وابنِهِ «يَزيد».

حَدَثَ آنذاكَ أَنْ خَرجَ ابنُ النُّعمانِ بن بَشيرٍ يَطلبُ الصَّيدَ في الجبالِ والوديانِ، وبينَما هو يَتصيَّدُ في أَرضٍ خَصبَةٍ تُحيطُ بِها أَشجارُ التِّينِ والزَّيتونِ والفُستُقِ والعنَبِ، افترَسَهُ سَبعٌ ولَمْ يُبقِ منهُ سِوَى العظمِ. فَحزِنَ عليهِ أَبوهُ أَيَّما حُزنٍ، وبَنَى لَهُ قبراً في ذَلِكَ المَوضِعِ، فَأُطلِقَ عليها منذُ ذَلِكَ الحينِ: «معرَّةَ النُّعمانِ»، ومِنْ ثَمَّ كَثُرَ فيها البِناءُ، وتَوافدَ إِليها النَّاسُ مِنْ كُلِّ حدبٍ وصوبٍ، وهاجرَتْ إِليها بَعضُ الأُسرِ العربيَّةِ مِنْ قُضاعَةَ ومِنْ قَحطانَ.

وعُرِفَ مِنْ تِلكَ الأُسرِ العربيَّةِ التَّنوخيَّةِ المقيمَةِ فيها كِبارُ العُلماءِ والشُّعراءِ والأُدباءِ والقُضاةِ، ومِنهُمُ القاضي الفاضِلُ، والعالِمُ الجليلُ «عبدُ اللهِ بنُ سليمانَ بنُ مُحمَّدٍ التَّنوخيُّ» الَّذي كانَ مِنْ ذَوي الرِّياسَةِ والوجاهَةِ في بَلدَتِهِ وبينَ قومِهِ، وقَدْ تَزوَّجَ مِن امرأَةٍ جَليلَةِ القَدرِ مِنْ قَومِهِ تُشاطرُهُ مَشاقَّ الحياةِ. وفي نَهارِ الجُمعَةِ الواقِعِ في السَّادسِ والعشرينَ مِنْ شَهرِ كانونٍ الأَوَّلِ سَنةَ (973) ميلاديَّةً، رُزقَ القاضي «عبدُ اللهِ بنُ سُليمانَ» بِمولودٍ فَرحَ بِهِ كثيراً، هوَ وزَوجَتُهُ، واحتفَلَتْ بِولادَتِهِ «مَعرَّةُ النُّعمانِ» فَأُقيمَتْ في بيتِ «عبدِ اللهِ بنِ سُليمانَ» الولائِمُ والاحتفالاتُ احتفاءً بِابنِهِ البكرِ الَّذي سَمَّاهُ «أحمد» ولُقِّبَ فيما بَعدُ بِـ «أبي العلاءِ».

ولَكِنْ، بعدَ ثلاثِ سَنواتٍ مِنْ ولادتِهِ أَصابَهُ داءُ الجدري الخبيثُ، وهوَ مرضٌ يُصيبُ

الجسمَ البشريَّ ويُشَوِّهُهُ، ولَمْ يَكُنْ لَهُ علاجٌ في ذَلِكَ الوَقتِ، ولَمْ يُغادرْ داءُ الجدري جسمَ هذا الطِّفلِ الصَّغيرِ حَتَّى شَوَّهَهُ، وتَسبَّبَ في إِصابَتِهِ بِالعمى فيما بَعدُ، فانطَفأَ نورُ بَصرِهِ عَنْ جمالاتِ الكونِ منذُ ذَلِكَ الحينِ، فَحزنَ عليهِ والداهُ حزناً شَديداً. ولَمْ تُقعِدْ هذِهِ العاهَةُ الطفلَ الطَّموحَ عَنِ السَّعي في طَلبِ العلمِ، وعنِ المُثابرَةِ في الحفظِ والاجتهادِ، فَتلَقَّى منذُ صغرِهِ مبادئ العلمِ عَنْ أبيهِ، وعنْ كبارِ علماءِ بَلدَتِهِ الَّذينَ كانوا يَغشونَ مجلسَ أَبيهِ، وكانَ «أبو العلاءِ» في صغرِهِ، سريعَ الحفظِ لِما يَسمَعُ، قويَ الذاكرَةِ، شَديدَ الميلِ نحوَ العلمِ والمعرفَةِ.

ولـمَّا بلغَ سنَّ الثَّالثِةَ عَشرَةَ، ذاعَ صيتُهُ، وعَمَّتْ شهرتُهُ في بَلدَتِهِ وما جاورَها مِنْ مدُنٍ وقُرَى عَلى أَنَّهُ عالمٌ حافِظٌ لِلعلمِ ومُحدِّثٌ بِأُصولِهِ، وقارِضٌ لِلشِّعرِ مِنَ الطِّرازِ النَّادرِ، وهوَ مِنْ شُعراءِ العربِ القَلائِلِ الَّذينَ قَرضوا الشِّعرَ وهُمْ صِغار وأَجادوا فيهِ، ودليلُ ذَلِكَ ما رواهُ عَنهُ «ابنُ حجَّةَ» في كتابِهِ «ثَمراتِ الأَوراقِ»، أَنَّ «أَبا العلاءِ» كانَ صغيراً عندما حضَرَ إِليهِ جَماعةٌ مِنْ كبارِ علماءِ حلبَ الَّذينَ سَمعوا بِفرطِ ذَكائِهِ، وكانَ يلعبُ معَ الصِّبيانِ، فقالَ لَهُمْ:

ـ هلْ لَكُمْ في المقافاةِ بِالشِّعرِ[1]؟

فقالوا: نعم.

فَجعلَ كُلُّ واحدٍ مِنهُمْ ينشدُ بيتاً وهوَ يُعارِضُهُ بِبيتٍ على قافيَتِهِ، حتَّى فرغَ حِفظُهُمْ، وتَغلَّبَ عليهِمْ، وقالَ لَهُمْ:

---

(1) المُقافاة: يُرادُ بها مطارحة الشعر على قافية واحدة.

ـ أَعجَزتُمْ أَنْ يَعملَ كُلُّ واحدٍ منكُمْ بيتاً عندَ الحاجَةِ على القافيَةِ الَّتي يُريدُ؟

ويقصدُ في ذَلكَ أَنَّهُ عندما لَمْ يكُنْ يَحفَظُ بيتاً على القافيَةِ الَّتي يُريدونَها، كانَ يَأتيهِمْ بِبيتٍ يَنظمُهُ لِتَوِّهِ.

❋ ❋ ❋

رحلَ «أَبو العلاءِ» في سبيلِ طلبِ العلمِ، وتَغرَّبَ عَنْ بَلدِهِ وأَهلِهِ، وركبَ الأَهوالَ والصِّعابَ، وتَحمَّلَ الأَخطارَ والويلاتِ، فَكانَ يواجِهُ كُلَّ ذَلكَ بِروحٍ سَمحَةٍ، وبنفسٍ مُطمَئِنَّةٍ، راضياً بِقضاءِ اللهِ وقَدرِهِ، حامداً إِيَّاهُ عَلى كُلِّ حالٍ. لَمْ يَتبرَّمْ يوماً بِالعاهةِ الَّتي نزلَتْ بِهِ، وكانَ يقولُ حامداً رَبَّهُ:

«أَنا أَحمدُ ربي عَلى نِعمَةِ العَمَى كما يَحمدُهُ غيري عَلى نعمَةِ البَصرِ».

رحلَ إِلى حلبَ وقرأَ النَّحوَ والأَدبَ عَلى كبارِ عُلمائِها، ثُمَ رحلَ بعدَها إلى طرابلس الشَّامِ، واطَّلعَ فيها على كُبرياتِ مكتباتِها، ثُمَّ اتَّجهَ منها إِلى اللاذقيَّةِ وأقامَ فيها سَنتينِ في ديرٍ شَهيرٍ فيها، يُدعَى «ديرُ الفاروسِ» ويُقالُ: إِنَّهُ اطَّلعَ فيهِ عَلى فلسفَةِ اليونانِ، ولمْ يكُنْ قَدِ اطَّلعَ عليها مِنْ قبلُ، ثُمَّ عادَ منها إِلى مسقَطِ رأسِهِ، فَمكثَ قليلاً، ثُمَّ عاودَ رِحلاتِهِ مِنْ جَديدٍ، فَقصدَ مدينَةَ «بغداد» وأقامَ فيها عدَّةَ سنواتٍ عاكفاً عَلى التَّصنيفِ والتأليفِ، ومطارحةِ العلمِ والأَدبِ معَ كبارِ علمائِها وأُدبائِها.

وفي بَغدادَ عَمَّ صيتُهُ في أَرجاءِ العالمِ الإِسلاميِّ عَلى أَنَّهُ أَديبٌ وشاعرٌ مُتَفلسِفٌ يَقولُ

الحكمةَ في شعرِهِ وأدبِهِ، ويَنتقِدُ ما يَراهُ ويَسمعُهُ في واقِعِ الحياةِ مِنْ ظروفٍ وأَحوالٍ مُنحرفَةٍ عَنْ جادَّةِ الإِنسانيَّةِ، والطَّريقِ القَويمِ الَّذي يَستَحسنُهُ العقلُ والشَّرعُ.

وكانَ مِنَ الطَّبيعيِّ أَنْ تَصطَدمَ آراؤُهُ معَ آراءِ بَعضِ العُلماءِ والأُدباءِ المُقرَّبينَ مِنَ الحُكَّامِ ويَسعونَ نَحوَ شهرَتِهِمْ ومَصالحِهِمْ، فَثارتْ حَفيظَتُهُمْ عليهِ، وراحوا يُقلبونَ عليهِ العامَّةَ، ويَتَّهمونَهُ بِالزَّندقَةِ والإِلحادِ، فَدفَعهُ ذَلكَ إِلى استعجالِ الرَّحيلِ عَنْ «بغدادَ» والعودَةِ إِلى مسقَطِ رأسِه مِنْ جديدٍ، ولا سيَّما بَعدَ سماعِهِ خبرَ موتِ أُمِّهِ.

أقامَ «أبو العلاءِ» بعدَ رجوعِهِ مِنْ بَغدادَ في «معرَّةِ النُّعمانِ» مُلازماً بيتَهُ لا يُغادرُهُ، مُنصرِفاً إِلى التَّأليفِ والتَّصنيفِ، وتَحوَّلَ بيتُهُ إِلى مدرسَةٍ يَؤمُّها الطُّلَّابُ والرَّاغبونَ في العلمِ والمعرفَةِ، وأطلقَ على نَفسِهِ «رهينَ المحبسينِ»، وهوَ يقصدُ لزومَهُ البيتَ والعمَى، وتارَةً كانَ يُطلِقُ على نفسِهِ رهينَ المحابِسِ الثَّلاثَةِ:

أَراني في الثَّلاثةِ مِنْ سُجوني ... فَلا تَسأَلْ، عَنِ النَّبأِ النَّبيثِ
لِفَقدي ناظَرَيَّ ولزومِ بيتي ... وكونِ النَّفسِ في الجسدِ الخبيثِ

❋ ❋ ❋

كانَ شعرُ «أبي العلاءِ» قَويّاً جَزلاً فيهِ البَلاغَةُ في القَولِ، والحكمةُ في المعنَى، والفَلسَفَةُ في العرضِ، وبُعدُ النَّظرِ في الرُّؤيا، والوضوح في المَقصَدِ، وكثيرٌ مِنْ شعرِهِ ذَهبَ مَذهبَ الأَمثالِ، فمِنْ ذَلِكَ قَولُهُ:

تَوَهَّمتَ يا مغرورُ أَنَّكَ دَيِّنٌ ... عَليَّ يَمينُ اللهِ، ما لَكَ دينُ

تَحجُّ إِلى البيتِ الحرامِ تَنَسُّكاً ويَشكوكَ جارٌ بائِسٌ وخدينُ

ويَقولُ مُصَوِّراً تَهافُتَ النَّاسِ على المالِ:

والمالُ يُسكِتُ عَنْ حَقٍّ ويَنطقُ في بَطلٍ ويُجمَعُ إِكراماً لَهُ الشِّيَعُ

ويَقولُ رادّاً عَلى مُناوئيهِ:

وقَدْ نَبَحوني وما هجتُهُمْ كما نَبحَ الكلبُ ضَوءَ القمر

ويَقولُ مُصوِّراً الحياةَ الدُّنيا بِالسَّفينَةِ الَّتي تَجري في البَحرِ والنَّاسُ عَلى مَتنِها، وتوشِكُ أَنْ تَصلَ إِلى مرساها في نِهايَةِ العُمرِ:

عصرُ شِتاءٍ وعصرُ قَيظٍ وعيدُ فطرٍ، وعيدُ نحرٍ

ويَومُ نُعمَى، ويَومُ بُؤسٍ ونَحنُ في خُدعَةٍ وسحرٍ

كَأَنَّنا، والزَّمانُ يَمضي رَكبُ سَفينٍ، يَلجُّ بَحرٍ

ويَقولُ مُصَوِّراً الدُّنيا الّتي أَفرَغَتْ شَرَّها عَلى كُلِّ ما فيها مِنْ إِنسانٍ وحيوانٍ:

قَدْ فاضَتِ الدُّنيا بِأَدناسِها عَلى بَراياها وأَجناسِها

وكُلُّ حَيٍّ فيها، ظالمٌ وما بِها أَظلمُ مِنْ ناسِها

❋ ❋ ❋

عاشَ «أبو العلاءِ» ما يُقاربُ الثَّمانينَ عاماً، قَضاها في التَّعلُّمِ والتَّعليمِ، وفي التَّأليفِ والتَّصنيفِ، ومَلأَ الدُّنيا بِعلمِهِ، وشَغلَ النَّاسَ بِشعرِهِ وأَدبِهِ.

وفي العشرينَ مِنْ شَهرِ ربيعِ الأَوَّلِ سَنةَ (449) هجريَّةً الموافقَة لِسنَةِ (1058) ميلاديَّةً، وافَتهُ المَنيَّةُ بعدَ مرضٍ أَصابَهُ وألزَمَهُ الفراشَ، وشَيَّعَهُ جمعٌ غفيرٌ مِنْ تلامذَتِهِ وطلَّابِهِ، وأهلِ العلمِ والأَدبِ، ودُفِنَ في بَلدتِهِ «معرَّةِ النُّعمانِ»، ومازالَ قبرُهُ ماثِلاً، ويُزارُ هُناكَ، وقَدْ أَوصَى أَنْ يُكتَبَ عَلى قبرِهِ قولهُ:

هـــذا جـنـــاهُ أَبـــي عـــلـــيَّ   و مــا جــنـيَــتُ عَــلــى أَحــدِ

وهوَ يقصدُ بِذلِكَ: أَنَّهُ ظلَّ عازباً عازفاً عَنِ الزَّواجِ، فَلَمْ يَتزوَّجْ ولَمْ يُنجِبْ أَولاداً حتَّى يَتَعذَّبوا في الحياةِ، فَهوَ يَرى الحياةَ شُؤماً عَلى الإنسانِ.

كانَ «أَبو العلاءِ» غَزيرَ العلمِ، وافرَ الإِنتاجِ الأَدبيِّ، ترَكَ لنا نَحوَ سبعينَ مُؤَلَّفاً أَدبيّاً مِنْ أَشهرِها:

- سَقطُ الزِّندِ.
- اللُّزومياتُ.
- الفُصولُ والغاياتُ.
- رِسالَةُ الغُفرانِ.

وتُعتَبرُ رِسالَةُ الغُفرانِ أَهمَّ وأَشهرَ مُؤلفاتِهِ عَلى الإِطلاقِ، وهيَ مِنْ نَفائِسِ كُتُبِ تُراثِنا الأَدبيِّ، ومِنْ أَغناها أَدباً وفَلسَفةً.

الأَسْئِلَةُ وَالْمُنَاقَشَةُ

1 ـ بِماذا أَفادتْ «أبا العلاءِ» الحياةُ القاسيةُ التي عاشَها؟

2 ـ ماذا أَجلَّ أَبو العلاءِ؟

3 ـ ما هيَ أَسبابُ اتِّهامِ أَبي العلاءِ بِالإِلحادِ والزَّندقَةِ مِنْ قبَلِ البعضِ؟

4 ـ إِلى مَنْ يُنسَبُ أَبو العلاءِ، وماذا كانَ يعملُ أبوهُ؟

5 ـ ماذا استفادَ أَبو العلاءِ مِنْ رحلتِهِ إِلى طرابلسَ واللاذقيَّةِ؟

6 ـ كيفَ كانَ حالُ أَبي العلاءِ في معرَّةِ النُّعمانِ بعدَ عودتِهِ مِن بغدادَ؟

7 ـ ماذا أَوصَى أَبو العلاءِ أَنْ يُكتبَ عَلى قبرِهِ، وماذا قصدَ فيهِ؟

8 ـ ما هيَ أهم مؤلفاتِ أَبي العلاءِ؟

المحتوى

لبيدُ بنُ رَبيعةَ شاعرُ العربِ 5

الخَنساءُ شاعرة الرِّثاء 17

حَسَّانُ بْنُ ثابِتٍ شَاعِرُ الرَّسُولِ ﷺ 29

عُمَرُ بنُ أَبي ربيعةَ شاعرُ المرأةِ 39

أَبُو العَتَاهِيَةِ شاعرُ الزُّهْدِ 51

أَبو تمَّام شاعر البطولات 63

البحتريُّ شاعر الوصفِ 75

أَبو الطيِّب المتنبِّي شاعرُ الحِكمة 89

أَبو فراس الحَمدانيُّ الشاعرُ الأسِير 101

أَبو العلاءِ المعريُّ فيلسوفُ الشُّعراء 113

المحتوى 123